عبدالله ثابت

رواية

وَجهُ النائم

دار الساقي

تنبيهات قبل قراءة هذا الكتاب

- تنبيه أزلي أول: كل امرأة في داخلها شجرة!

- تنبيه مكرّر كثيراً: إذا غادرت الشجرة التي تألفها، فتأكّد أن أكثر ما في العودة وحشةً أنه لا شيء فيها يحدث للمرة الأولى!

- تنبيه يومي: أكثر ما يفعله الحطّاب حين يفقد فأسه، أن يعد الأشجار!

- عابر يحفر تنبيهه على لحاء شجرة: كما تشاؤون، سأخرج من هذا الوادي مثل حطبة جرفها السيل، لكن.. لكن لا تنسوا العشب النابت عند الباب ولا الظلّ اللاصق بالنوافذ، لا تنسوهما وحيدين!

عبد الله ثابت شاعر وروائي سعودي. من مؤلّفاته «الهتك»، و«النوبات... تالفٌ يمضغ عصبه»، و«CV حرام»، و«كتاب الوحشة»، ورواية «الارهابي ٢٠» الصادرة عن دار الساقي والمترجمة إلى الفرنسية.





الطبعة الأولى ٢٠١١

ISBN 978-1-85516-694-3

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٠٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٠٩٦١
e-mail: info@daralsaqi.com

ملحوظة خاصة لعناية الظلم:

من فوق مركبة الأحلام وبين أحصنة المجهول، كانت قد استغرقت كتابة هذه الأوراق بضع سنين، لكن قراءتها لن تستغرق سوى ٩٣ دقيقة..

وهذا ليس عدلاً!

الإمضاء:

تقول الشرفة:
الأشجار وأنا . . كلانا تأخذنا الريح!

تنبيهات قبل قراءة هذا الكتاب

* تنبيه أزلي أول:
كل امرأة في داخلها شجرة!

* تنبيه مكرر كثيراً:
إذا غادرت الشجرة التي تألفها، فتأكد أن أكثر ما في العودة وحشةً، أنه لا شيء فيها يحدث للمرة الأولى!

* تنبيه يومي:
أكثر ما يفعله الحطّاب حين يفقد فأسه، أن يعد الأشجار!

* عابر يحفر تنبيهه على لحاء شجرة:
كما تشاؤون، سأخرج من هذا الوادي مثل حطبة جرفها السيل، لكن.. لكن لا تنسوا العشب النابت عند الباب ولا الطلّ اللاصق بالنوافذ، لا تنسوهما وحيدين!

لفافة الـ شاليه:

أيتها الغمامة الجالسة في المجهول،

وأنا هنا في هذا «الشاليه» العتيق.. أكتب وأشتكي إليكِ من البشر. ستعذرين هلوستي. أنتِ تعرفينني وإن كنّا لم نلتق يوماً، وأتخيّل أنك قلت لي مراراً أن هذا يعجبك. تخيلت خوفك من ظني بك أن تكوني ترينني كما يراني الآخرون من حولي؛ مسحوراً أو محسوداً أو به عين، أو مختلاً على أسوأ ما أراه في عيونهم! لا تقلقي، أعرف أنك لست كذلك.. ولا ترينني بعيونهم الممسوخة بأقاويل الدجل والوعاظ، أعرف أنك تحبين ما أقول، لكنني هذه المرة لن أناجيك وأنت على كتف ذاك المجهول. سأكتب لكِ لأنه لا طاقة بي على الكلام مع أحد حتى معك.. وسامحيني. حتماً تفهمينني!

تدرين! أشعر أني جنين.. حالة الجنين لا تفارقني، وهؤلاء البشر من حولي لا يفهمون كلامنا، نحن الأجنة، وأظنهم لا يعرفون أننا نتكلم أصلاً!

في عالمنا – نحن الأجنة – لا نحتاج لأصوات الناس الفجّة، لأن لغتنا لغة سائلة، إنها مزيج رهيبٌ من مفرداتٍ لا

يمكنني أن أصفها لهم، ولا أدري كيف تنازلتُ عن دم أمي وتحدثت إليهم بكلامهم العاجز، بكل ما فيه من الهشاشة والخداع. هذه هي لغتهم التي تنتظرنا، حين نخرج من بحيراتنا المقدسة بأرحام أمهاتنا.. لو يعرفون ما أسهل تعلّمها! إنها شيء مضحك وغير موثوق، لدرجة أننا نتقنها بعد حلم أو حلمين من أحلام أمهاتنا اللائي نعيش بداخلهن؛ أما لغتنا السّائلة فلا يمكنها أن تكذب، ولن يدركوا عنها ومنها شيئاً مهما شرحتها لهم، لأننا نسمعها عبر الدم، ونتكلم بها بالدم، وكل هذه الجلبة المهولة من الصدق، نتداولها عبر ما يسمونه هم بـ«حبل السرّة». آخ.. مساكين هؤلاء البشر لأنه لا حبال سرّية لهم تربطهم بأمهاتهم وعالمنا، بعالم الخلق والتكوين المدهش والمهيب.. إنهم عميانٌ مقطّعو الألسنة، ضائعون ومجهولون، لا يرون أيّ شيء مما ينتظرهم في الغيب. نحن فقط نملك هذه المعرفة، لأننا ما زلنا نملك حبالنا إليها ونراها ونرى كلّ ما سوف يحدث.. وحين نولد ويُقدِمون على قطع حبالنا السُّرّية، فإننا — ويا للشقاء — ننسى كل ما عرفناه وفهمناه، ونصبح من سائر الناس، نصير مثلهم دونما كلام أو حقيقة!

* *

سأرجع بكِ أيتها الجليلة المجهولة إلى مكاني هناك. انسي شكلي وزمني الآن.. أرجوكِ، ارجعي معي إلى ذلك الكيس الصغير في أحشاء والدتي واعتبريها لحظتنا الآن، سأكلمك من رحم أمي، وقبل ولادتي بالذات:

أنا الجنين الصغير.. على وشك خروجي لعالم البشر من

بطن أمي التي ستقضي في الطلق وقتاً أقدّره بساعة واثنتين وثلاثين دقيقة، وأتكلم بكلام لا يسمعونه ولم يتعودوه، وربما ستكون هذه المدة بالذات وقت احتضاري حين أموت أيضاً، ربما يستغرق طلق روحي وولادتها إلى عالم الموت والأبدية مدة ساعة واثنتين وثلاثين دقيقة أيضاً.

أتذكر اللحظة أني، عندما كنت في رحم أمي، كنت غاضباً من كل أحد حتى منكِ، وأسترجع كلامي وأنا أصرخ على الناس، بينما قدمي تضغط على عصبٍ أو لحم في جوف والدتي.. هل تعرفين ما قررته وقلته حينها؟ حسناً.. لحظتها حزمت أمري، أنا الجنين «غسان»، أن أمضي هذا الوقت الثقيل بأن أحدثكم عن نفسي، أيها البشر، بلغتكم التي تدعو للسخرية — هكذا قلتُ.. فقد ودَّعت كل أهلي من الأجنة؛ ولأنني لا أطيق الانتظار، فسأقول لكم ما يمكن قوله، ولن أفكّر بأني حنثت بميثاق الرحم، وتكلمت بغير لغته، فأنا أعي أنكم غير قادرين على سماعي، وحتى لو سمعني أحدكم فسيعتبر هذا وهماً، أو بعضاً من خرافاتكم البلهاء، تلك التي تخترعونها لتداروا بها جبنكم وهلعكم من الغيب! إنني أفعل هذا بهدف التسلية وتزجية الوقت، فأنا لا أحتمل الوداع، خصوصاً إذا كنت سأغادر جنة أمي إلى جحيمكم، وأفعل هذا أيضاً لأني سأكون شقياً ومعذباً، في دنياكم، التي لا تستحق حتى أن ألتفت إليها ولو لثانية.. يا إلٰهي ما أشد تفاهة عالمكم — أيها الناس — عالمكم الذي لا أريد أن أكون واحداً من أعضائه، وما أكبره حظّ إخواني الأجنة الذين ماتوا قبل الولادة أو أُجهضوا، أو حتى دخلوا دنياكم

وصاروا منكم، ثم ماتوا قبل أن تعبثوهم بأوساخ حياتكم وكوكبكم هذا!

هيّا يا بشر.. — هكذا قلتُ — أفّ، أفّ! سأحكي دونما توقف، انتقاماً من الانتظار، واستخفافاً بقدراتكم وكلامكم وحياتكم.. ففي قسم الولادة بمستشفى «باب شريف» في جدة، سأصيح ضحى اليوم، أعني أني أنا الجنين غسان، سأكون هناك ضحى اليوم، الأربعاء ٣٠/٤/١٩٦٤، وسيستمر شيءٌ غريبٌ لأربع دقائق، ما بين ١٠:٤٧ و ١٠:٥١ صباحاً، وعلى الفور ستقطع حبلي السرّي القابلة القبيحة، ثم ستربطه وترفعني، وتلفني باللحاف حتى لا أتعرض لأيّ تيار أو جراثيم، وهي حقيقةً لا تفهم ما تفعله، لكنها تتصرف كما لو أنها هكذا جرت التقاليد الطبية وكما تعلمت من سيدة قبيحة مثلها.

أمي حبيبتي، لشدة الإعياء بدت وكأنها تحتضر، دمعتان انحدرتا من عينيها، وأحسستهما بطريقتي التي لن ينتبه لها أحد.. ثم ماتت. حينها بكيت أنا بشدة، وصرخت حتى احمرّ وجهي، كنت أشد ذراعيّ وقدميّ، وكانت كفّاي مقبوضتين.. إن أمي هي عالمي، هي كلّ عالمي، أمي حبيبتي!

لم يمض بعض الوقت حتى أدخلوا والدي بكامل صمته إلى سرير أمي كي يودعها، ومع أنهم أخرجوني إلى غرفة مجاورة بقسم الحضانة، إلا أني أتذكره بوضوح وأتخيل لحظتها وعمري دقيقة واحدة أنه وضع يده على يدها، وانحنى ليقبّل جبهتها.. بكى كثيراً واعتذر منها كثيراً، وبعد زمن ليس بالطويل، جاء إليّ.. أدخلنه الممرضات وهنّ يغسلنني بالماء الدافئ، ينظفنني

من بقايا أمي؛ نظر إليّ نظرة شفقة، أحسست أنها من أعماق أعماق قلبه، ثم دنا بفمه مني، وقبّلني في خدي وعلى يدي، وأمسك برجلي الصغيرة. خفق قلبه بسرعة، وسمعته وهو ينظر إليّ ويقول في نفسه «يتيم أنت من أول ثانية»؛ بكيت حينها مرةً أخرى، وصرختُ، واحمرّ وجهي جداً.. أحب أبي، وأشفق عليه.. أبي يا حبيبي!

* *

آآآه.. عن ماذا أحدثك الآن يا عزيزتي المجهولة؟ وأي شيءٍ سأتذكره؟ سأحكي لك كيف صار لي اسم؛ بعد عصر ذلك اليوم الذي جئت فيه وذهبت أمي، كان يجلس وحده، منتحباً باكياً على سطح البيت. ترك الرجال والنساء من الأقارب، وبعض الجيران، وهم في بيتنا يعزّونه في أمي، ويهيئون كل شيء في انتظار المعزين، الذين سيأتون في الغد.

في الغد سأخرج من المستشفى إلى البيت، وبينما والدي على سطح بيتنا ينتحب على فراق أمي، تذكرني وتذكر أنني بلا اسم، وقال في نفسه أنه لن يودع أمي لمثواها إلا وقد همس في أذنها باسمي، حتى لو لم تسمعه. وعلى الفور أخرج قلماً وورقة، قطّعها إلى ثلاث قصاصات متساوية، وكتب في واحدة (فارس) وفي الثانية (عبد الرحمن)، وفي الثالثة (غسان). كنت أعرف لماذا اختار هذه الأسماء بالذات.. فارس والده، وأبي بالرغم من أن والده مات وهو طفل، إلا أنه ظلّ يحنّ إليه، ويناجيه كل يوم، وكان يعتقد يومها أنه لو وقعت القرعة على هذا الاسم فإنه سيشعر بطعم البرّ، هكذا قال لي! وأما عبد الرحمن

فهو اسم شقيق أمي الأكبر، الذي كان يرعى وإياه الماشية، وهو من أعمامه يعتبر عبد الرحمن في مقام الأب له ولأمي، لأنه كما يردد دوماً أنه تعلم منه ما يتعلمه الصغار من آبائهم؛ وأما غسان فهو أول اسم سماه لابنه البكر، والذي لم يعش سوى سبعة أشهر في بطن أمي وسبعة أشهر خارجها، ثم مات!.

كرمش أبي القصاصات الثلاث، ووضع واحدةً منها أول السطح، والثانية في منتصفه، والثالثة في آخره، وبدأ بالمشي من اليمين إلى اليسار بينها، وهو يقرأ سورة الرحمن. أخبرني أنه عقد في نيته أنه حين يصل إلى الآية التي تقول (ولمن خاف مقام ربه جنتان) سيقف، وأقرب الأوراق منه سيفتحها، وسيكون اسمي هو الذي بداخلها، ولا أذكر لماذا حدّد هذه الآية بالذات، لكنني أجزم أنه كان يربط كل شيء بمخافة اللّه، وأظنه حددها هي بالذات أيضاً لهذا السبب. أبي كان يحب سورة الرحمن.

بدأ والدي المشي، ومع أول خطوة بدأ التلاوة :

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)
خَلَقَ الإنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)
أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا
الْمِيزَانَ (٩) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ
الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)
وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَارِجٍ مِّن نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

(١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ
(٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ
وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِي
الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ
(٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ
وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ
السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا
تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ
فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ
لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا
الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)»

حين بلغ أبي هذه الآية كان عند الورقة التي ابتدأ السير من عندها. رفعها وفتحها، ليجد الاسم المكتوب بداخلها

غسّان..

(غسان).. توقف والدي قليلاً، وانقبض صدره، وشعر ببعض الخوف والقلق، أن أموت كما مات أخي السابق، ولكنه طبق الورقة، وتمتم «توكلت على اللّه»! أبي رجلٌ شديد الإيمان باللّه وبالقرآن..

ليلاً وأبي في المقبرة، والفوانيس تحيط بالقبر المحفور، المهيأ لأمي، كان أبي يحاول أن يخفي نشيجه.. كشف الغطاء عن وجهها، وكانت أمي جميلةً وراضية، اقترب منها وقبّلها في خدها وجبهتها، وسقطت دمعاته على وجهها، ثم اقترب من أذنها وهمس: «في ذمة اللّه يا أم غسان».. ثم قام عنها، نظر إلى وجهها ليرى إن كانت قد سمعت اسمي أو لم تسمعه، لم يرَ شيئاً.. فنزل القبر ومعه رجلٌ آخر؛ استقبلاها ووجّهاها ناحية القِبلة، على جنبها الأيمن، ثم رصفا اللحد فوقها، وفي وقتٍ قصير أهال الجميع عليها التراب، ثم غادروا المقبرة إلا والدي، برك عند رأسها، يبكي ويقرأ سورة الرحمن، وبين الآيات ينحب وينادي أمي: «قتلتك يا فاطمة قتلتك، سامحيني وسامحي غسّان!».

مسكينٌ أبي؛ لم يعرف أنها سمعته، سمعت اسمي..
أمي سامحتنا!

* *

من تلك اللحظة أيتها المتربعة في المجهول.. وأنا الجنين، والطفل، والشاب، والرجل، ومجهولك: غسان!

١

أفّ!

لعنة اللّه على الذاكرة.. ويا لهذا المجهول الذي يلاحق أبناءه!

أتخيَّل أنه لم تكن هناك مصادفة تذكر في خلقنا، لكني أيضاً أفكر أنه لابدّ أن شيئاً مريراً، مثل الوحدة، كان هو السبب في وجود هذا العالم على هذا النحو الموغل في الأوجاع والتناقضات والجنون.

كلما نظرت إلى الأشكال التي أمكن تصويرها من الكون، فيما وقعت عيناي عليه من الأفلام، أو اللقطات، التي تملأ شاشات التلفزيون، والمجلات، ومواقع الانترنت، أشعر بشيءٍ آخر، ليس العظمة، وليس احترام معجزة الخلق المحيرة، ولا السؤال عن الخالق، بل هو الشعور بحجم الوحدة الرهيبة الماثلة في هذه الصور، والتي نحتت هذا الحزن الطافح من الظلمة التي تكسو الفضاء، والتي لا تستطيع الشمس وسائر النجوم أن تواجهها بغير هذا النزر اليسير من النور.. أجل هذا الحزن المهول الذي صار مجرّاتٍ، وكواكب، ومداراتٍ، وشهباً تشبه صرخات الهلع.. وصار بشراً صغار الحجم، أصغر من الجبال،

وأقصر من الطرقات، وأعجز من أن يحتملوا عبء هذه الوحدة الكونية.. هذا الحزن الوجودي الشاسع صار قلوباً بحجم القبضات، وأحلاماً ملونةً، ومواعيد، وليالي، وصار أسراراً وحكايات!

و«غسان» مثل هذا الوجود، مليءٌ بالأحلام، والمواعيد المخذولة، والليالي.. مليءٌ بالحزن والوحدة.

غسان.. ذو الأربعة والأربعين عاماً. طويل القامة، نحيل الجسد.. بوجهٍ أبيض، وشاربٍ موزون، وحاجبين سميكين، ورأسٍ كثير الشعر، متماسك السواد، لا يدل مظهره الخارجي على عمره أبداً. ماتت أمّه بعد ولادته.. عاش وهو يعتقد يقيناً أن الذي يكبر بعيداً عن أمه سيفتش عنها في سائر النساء، ودوماً لن يرضى عن أية امرأة، وكذلك كان!.

في العاشرة من عمره نشب خلاف بينه وبين أحد زملائه في الصف، لسببٍ تافه كما يفعل الصغار في كل مكان؛ علكة أو رمية قرطاس أو إسقاط حقيبة.. إلخ. تدافعا وتشاتما، اقترب من زميله ودفعه بقوة، فسقط الأخير على الأرض، فقام وهو يقول «يا ابن الـ...»، فهجم عليه غسان وأوسعه ضرباً، ولم يخلّصه منه غير دخول المعلم إلى الفصل، والذي بدوره سحب الاثنين لإدارة المدرسة، وبعد التهديد والوعيد، أقرّ الصبي بالكلمة التي قالها. عاقب المدير غسان بثماني جلدات على يديه أمام فصله، أما الطالب الآخر فضربه ثماني جلدات بعد صلاة الظهر في مسجد المدرسة، وأمام جميع الطلاب.

وبعد عدة أيام، قام هذا الصبي واثنان من إخوته الكبار

بترصّد غسّان، لاحقوه ومشوا وراءه حتى انفردوا به في أحد الأزقة، وتحلقوا عليه، فضربوه بلا رحمة، ثم ألصقوا وجهه بالتراب، وأخرج أحدهم سكيناً من جيبه ووضعها أمام وجهه، وهدده إذا لم يقل الكلمة ذاتها إنه هو «ابن الـ...» فإنه سيفقأ بها عينيه. بكى حينها كثيراً وتوسلهم أن يتوقفوا لكن دون جدوى، وأخيراً والألم والخوف يمزقانه قال الكلمة؛ أعادوا عليه «قل إن أمك....»، لم يقلها فقربوا السكين من عينه، فأغمض عينيه وبكى، وقالها.. قال «أمي....»

عاد إلى بيته، وظلّ صامتاً وعازفاً عن الخروج من البيت لأيام، ظل صامتاً لا ينطق بشيء ودون أن يعرف والده ما به، حتى اعتقد أن عيناً أو حسداً أصاب ابنه وأبكمه، فجاء بالشيوخ لرقيته فما تفوّه بشيء، وما كان يواجه كل ذلك بغير دموع لا صوت ولا بوح وراءها.. وبعد أسبوعين تكلم. تكلم بطلب واحدٍ من والده؛ أن ينقله لمدرسةٍ أخرى. فرح والده وانفجر بأسئلة لا حصر لها عمّا أصابه، فلم يجبه أبداً بغير الطلب نفسه، وأخيراً مرت الحادثة، وانتقل بالفعل إلى مدرسة بعيدة، لكنه لم يرجع إلى الشخص الذي كانه أبداً. انزوى عن الجميع في مدرسته الجديدة، وصار قليل الكلام حتى مع والده، نادر الخروج من البيت، بعيداً عن ملاقاة أي أحد، وأدرك هو في قرارة نفسه أن ذلك الموقف دمر شيئاً ما في داخله، وأن خوفه وندمه وتلك الكلمة التي شتم بها أمه ستظلّ تشوي قلبه للأبد!

وفي عامه الواحد والعشرين حضر بالصدفة إعداماً، كان ذلك يوم جمعة، رأى تجمع الناس في إحدى الساحات، التي لم يكن

يعلم من قبل أن أحكام القتل تُنفذ فيها. أوقف سيارته واتجه للمكان، وخرق تحاشد الناس حتى صار في أقرب نقطةٍ يسمح فيها بالوقوف. كان العسكر للتوّ يُنزلون رجلاً شديد السواد، يرتدي ملابس أفريقية، مقيداً ومعصوب العينين. اقتادوه وهو يمشي بخطواتٍ ضعيفةٍ ومُرعبة، أجلسوه على الأرض ثانياً رجليه تحته، حانياً رأسه باتجاه الأرض. حينها بدأ أحدهم يقرأ في مكبر الصوت التهمة التي أدين بها ذلك الأفريقي، ثم أعلنوا ما سمّوه بحكم اللّه فيه، قتله ضرباً بالسيف. حتى تلك اللحظة لم يتخيل غسّان ما سيراه، استوقفته كلمة «ضرباً بالسيف»، لم يخطر بباله أن ينسحب، بل لقد استلبه المشهد المريع والكلام الذي سمعه بكل تفاصيله، حتى لم يعد قادراً على أن يقرر التراجع. زحام الناس، كلمة «لا إله إلا اللّه» التي تتعالى من أفواه الناس، هلعه الداخلي الفظيع صلّبته مكانه. بدأ ذلك الرجل الأسود بالصراخ، مردداً كلمة «اللّه.. اللّه». حدّق غسّان بكل ما يطيق وهو يرى رجلاً ضخم الجثة ينزل من سيارةٍ أخرى وبيده سيفٌ طويل تبرق شمس الظهيرة في لمعة حدّيه. اقترب من المحكوم ووقف على بعد خطوتين منه. تعالى صراخ الرجل الأسود أكثر، حتماً لقد سمع خطوات الموت الذي يسير نحوه، حينها صاح أحد العسكر بكلمة التنفيذ ولم يكد ينهيها حتى رفع الجلاد سيفه لأعلى مداه، ثم هوى به في ثوانٍ على عنق الأفريقي الأسود من الخلف. ولشدة الضربة انفصل رأسه عن جسده تماماً، وفي ثوان قليلة طاح جسد الرجل، محاذياً رأسه المقطوع، وتحركت قدمه حركةً أخيرةً، وبعدها همد كلّه. كان صوت الناس قد تعالى مع ما رأوه

أكثر وأكثر، أما غسّان فقد تسمّرت عيناه في الجثّة، وجمد مكانه دون حركة. لم يكن ما اختطفه تلك اللحظة شيئاً غير ذهول الكابوس.. إنها أول مرة يرى القتل أمام عينيه ومن تلك النقطة القريبة جداً، وبتلك الصورة المهولة. اندفعت الصدمة إلى عمق أعماقه، وأفقدته في تلك اللحظة حتى غريزة الرهبة والخوف، ولم يصحُ من وقفته تلك حتى رأى رجالاً يحملون الجثة ويضعونها في مؤخرة إحدى السيارات. عندما اختفت الجثة التفت إلى الناس المتجمهرين الذين صار عددهم أقل بكثير مما كان. مشى عائداً إلى سيارته وهو مأخوذٌ كلياً باللحظة الشنيعة التي عاشها، رأى في عودته أشخاصاً منهارين وآخرين ملتفين عليهم، يأخذون بأيديهم ويحاولون ردّهم لوعيهم. ركب غسّان سيارته ورجع لبيته، لم يتذكر أبداً فيما بعد كيف قطع الطريق وكيف عاد. في بيته كان الوقت كلما مرّ.. تنزاح الصدمة شيئاً فشيئاً، ويحل محلّها خوف عميق وشعورٌ فظيع، وتفكيرٌ شديد المرارة في الموت؛ كانت المشاهد تتوالى على ذاكرته، ويستعيد ما حدث بكل تفاصيله كل لحظة من كل يوم، ينام ويصحو على صراخ ذلك الرجل الأسود «اللّه.. اللّه»، وعلى رأسه الذي طاح وطاح إلى جواره جسده؛ وبقي رهيناً لتلك الصور المدمّرة لأشهر، كانت تلك الثواني التي فصلت رأس رجلٍ عن جسده كفيلةً لتؤجج في أعماقه أشياء كثيرة؛ حسّه بكراهية الموت والعجز أمامه، بالألم والدم، بالانكماش والخوف من الناس أكثر وأكثر، وفقده للثقة في كل شيء.. فكّر في شقائه والعذاب المرير الذي يحياه، هذا الشقاء الذي يطارده، الشقاء الذي رجم به بغتةً في تلك

الساحة وكيف جرَّته الصدفة ليرى ما رآه. هكذا. . ومنذئذٍ صار أشد صمتاً وعزلةً وتوجساً من البشر والزحام!

وفي السادسة والثلاثين من عمره وقعت له أيضاً حادثة كانت آخر بابٍ أوصده القدر في وجهه، حتى لا يرجع لأي حياةٍ تشبه حياة الناس من حوله، تلك الحادثة كانت الحكم عليه أن يحيا على هذا الحدّ من الوحدة والتوحش. أحب فتاة عبر الهاتف، نعم أحبها، كان الأمر في بدايته مجرد خطأ في الاتصال من البنت، طلبت رقم بيته وأجاب هو بتثاقل وجفاء. «هذا بيت فلان؟». . «لا، هذا بيت الجنّ!»، ضحكت البنت، ثم سألته بمرح: «ولم هذا الغضب؟ تستطيع القول لا، ليس بيته». . قال لها «أجبتك»، وأقفل الهاتف. رجعت البنت للاتصال وانهالت عليه بالشتائم وهو ساكت، ولما انتهت قال لها كلمة واحدة: «آسف»، وأيضاً أقفل الخط. جن جنون الفتاة ورجعت للاتصال فلم يرد، وفي المرة الثالثة أجابها، فتكلمت بلطف، واعتذرت منه على كل كلمة، ثم قالت بخفة وضحكة صغيرة «لا تغضب، ألا تقول إن هذا بيت جنّ، يا جنّي؟» فضحك هو هذه المرة، وبعدها دارت أسئلة التعارف الصغيرة، وبادرته هي بجرأة بأنها ستتصل به في الغد في الوقت نفسه. في تلك الليلة سهر قليلاً ثم نام، وقضى يومه دون أن ينسى تلك البنت ولا وعد الاتصال، وحين جنّ الليل جلس إلى جوار الهاتف، وقبل الوقت بدقائق اتصلت الفتاة بالفعل، تحدثا قليلاً وقبل أن تنتهي المكالمة قالت: «اسمي عالية. . وأنت؟». . «أنا غسّان».

في اليوم الذي تلى فعلت، ثم تكرّرت المحاولات، وصار

هذا الوقت موعداً ثابتاً، لم يشعر من ناحيته بمخاوفه ولا حذره، كان وجودها خلف الهاتف كفيلاً بطمأنينة ما، بل يداخله شعور لذيذ! وفي كل مرة كان يتحدث بانطلاق أكبر، ولأول مرة يعرف غسان طعم الحديث مع آخر بلا قلق أو توتر، وهي من جانبها وقعت في سحر غرابته وعزلته وطريقته في الكلام والرهف الكبير الذي يدغدغ قلبها من صوته، وكثيراً ما كانت تنهال عليه بالأسئلة، ليس إلا لتسمعه يتكلم! لم يطلب منها مرّة أن يلتقيا أو حتى أن يراها من بعيد. سألته عن ذلك، لم يجب بداية، وحين حاصرته بإلحاحها أجاب أنه يخاف أن يخسر هذه الطمأنينة التي وجدها معها على الهاتف. لم تعلّق على كلامه، لكنها في داخلها صممت على أن تسحبه لهذا اللقاء، وبدأت تبني له في كل مكالمة أحلاماً حلوة؛ «لو أننا نملك تلك السيارات الكبيرة، التي تحمل على ظهرها بيوتاً كما في الأفلام، ثم نجوب بها كل مكان، لا يوقفنا عن رحيلنا إلا النوم»، «حين نلتقي سأضمك حتى تملّ أنت أولاً وتبعد يديّ عنك»، «أحب البحر، وأعشق القوارب، دوماً أخرج أنا وعائلتي ونستأجر قارباً لساعات، هل ستأخذني مرة؟»، ومرة سألته «حين نلتقي ماذا ستفعل؟» سكت قليلاً ثم قال «سأعد أصابعك» قالت له «لماذا؟» فبادرها «كي أعرف إن كنت تستطيعين الدفاع عن نفسك. . لأني سأخنقك»، وضحك وضحكت هي أكثر. وهكذا استمرت في تسريب هذه الأحلام الحلوة في كل حديث بينهما حتى صار يبادلها الخيالات. . وفي إحدى الليالي، وبعد أن تيقنت أنها نزعت خوفه كاملاً منها، وبحديثٍ رقيق، قالت له إنها تعتب كثيراً من

الحلم.. تريد أن يلتقيا. تردد قليلاً ثم سألها كيف وأين؟ فرحت بسؤاله، وفوراً قالت له: «عندك، تقول إنه لا أحد في البيت غيرك أنت ووالدك.. سآتيك صباح الغد حين يخرج أبوك إلى أشغاله، هيا صف لي؛ أينه بيتكم». اتفقا وبعد أن أغلق الهاتف، كاد يتصل بها مرة بعد مرة طوال الليل ليعتذر، لكنه أخيراً قرر أن يتغلب على نفسه..

جاءت البنت صباحاً، دخلت وتصافحا وتورطا في الكلام، لكنهما ضحكا حتى من لا شيء، قال لها إنها أجمل مما قالته عن نفسها ومما تخيلها، وخفق قلبه.. والخَفَر يلون وجهها بحمرةٍ راضية وفرِحَة. لم تمكث أكثر من عشر دقائق، وخرجت بحجة أن السائق ينتظرها بالخارج وهو أيضاً شاء أن ينتهي ذاك الحرج اللذيذ الذي وقعا فيه سريعاً. حين عادت لبيتها اتصلت به، وصار لحديثهما في الهاتف معنى آخر، كان طيف وجهيهما يعلو كل كلمة تدور بينهما. بعد أيام التقيا مرةً أخرى وقضيا وقتاً أطول، ثم التقيا ثالثة ورابعة.. وعاشرة، وكل ما قالاه على الهاتف قالاه وجهاً لوجه، تلامسا وتعانقا وتبادلا القبلات والضحك والحلم، كانت تأتيه في كل مرة برسالة ليقرأها بعد أن تذهب، وصار هو يفعل الشيء نفسه، يجهز لها كلمات حبه، وقبل أن تغادر يضعها في حقيبتها بفرح. لقد غيرته تلك الفتاة تماماً، أنسته آلامه وأغرقته حتى رأسه في جوّها وعالمها وحبّها، تعلّق بها للحدّ الذي لم يعد يرَ شيئاً في هذا الوجود إلا من خلالها. وهذا بالذات هو ما أجهز على نفسه حين وقع ما وقع!

تجسس أخوها على الهاتف، وسمع ما يدور بينهما، سمع

حديثهما عن لقاءاتهما، عن العناقات والقبل، سمع الضحك والأحلام، وسجل عدة مكالمات كان في آخر واحدةٍ منها موعد لقاءٍ جديد. هجم على أخته وضربها حتى أدماها، ولم تستطع أمه أن تنقذها من بين يديه، وأخيراً هددها إن هي لم تفعل ما يقوله لها فإنه سيقتلها ويقتله..

صباحاً، فتح غسان الباب، لكن الذي طرقه لم تكن عالية، بل كان رجال الهيئة والشرطة.. الشرطة التي اقتادته إلى التوقيف. حقق الضابط معه بكل وسيلة، دون أن يجيب بكلمة واحدة، «كنت على موعد مع عالية؟» فلا يجيب، «عالية تتهمك بأنك أغويتها ولديك ما تبتزها به وتكرهها على مجيئها عندك؟» فيحدق كالمجنون في الضابط ولا يتكلم. ضغطوا عليه بكل وسيلة لدرجة الإهانة دون أدنى رد منه، وأخيراً.. وبعد عدة أيام، عرضوا عليه الشكوى التي قدمتها البنت بخط يدها، وبتفاصيل مما كان قد وقع بينهما، وفيها كلها تتهمه بابتزازها وإكراهها على تلبية كل ما يريده منها. عرف خطَّها على الفور، ثم فتحوا أمامه بعض رسائله إليها. لم يجب أيضاً بشيء، لكنه كان ينهار شيئاً فشيئاً من داخله، حاول أن يتماسك قدر ما يستطيع، وفجأةً انفجر يصرخ بأعلى ما يطيق، بصوتٍ مليءٍ بالغبن، يصرخ ولا يتوقف إلا حين ينقطع نفسه، ثم يعود لصراخه، فاضطروا لرميه في إحدى غرف الحبس الانفرادي وإبقائه تحت المراقبة.

لم يمضِ أكثر من أسبوع في التوقيف، تدخل والده بنفوذه وأقنع عائلة البنت بالتنازل عن الشكوى، وبوساطة أخرى أُقفلت القضية كلها.

عاد غسان إلى بيته ولم يغادره، ولم يتفوّه بكلمةٍ واحدة مع أبيه لشهرٍ كامل. اهتزّ بينهما شيءٌ ما. حاول الأب من ناحيته أن يقسم له بكل يمين أنه لا يصدقهم، وأنه يعرف أن هناك قصة ما لا يعرفها، رجاه أن يخبره بما حدث.. لكن بلا جدوى! بعد ذلك، عاد غسان إلى الخروج والكلام، لكنه كان قد تغير بشكل مفاجئ، وإلى شيء غير متوقع؛ صار يضحك ويسخر من كل شيء، يسخر حتى من تصرفات والده وحياته أحياناً، صار يواجه الناس بجرأة وفظاظة، ويجرحهم بلسانه حين تمر على أذنيه أية كذبة حتى لو كانت من كذب المجاملات العابر، دون أن يعبأ بموقف الآخرين ولا تصورهم ولا نفورهم منه.. تلك الحادثة كانت حسنتها الوحيدة أنها أخرجته من الخوف، ليس إلى الحياة، ولكن إلى عدم الاكتراث بشيء، أخرجته من تجنّب الآخرين، ليس إلى معاشرتهم والعيش بينهم، بل إلى السخرية منهم ومهاجمتهم، لقد أفقدته احترام أي شيء أو الثقة به، وفتحت رغبته على السفر والهرب، ولشدة وقعها في نفسه، فقد أفقدته معنى هذا العالم الحاضر، بكل ما فيه ومن فيه، وعلّقت قلبه بالمجهول الذي صار هدفه، وبنى على تخيلاته، لهذا المجهول، كل ثانيةٍ في حياته. اللّه وحده يعرف ما الذي كابدته نفسه من الغبن والقهر بين تلك الجدران!

وفي مرّة.. أرغمته توسلات والده، التي بلغت البكاء أحياناً، على الزواج. كان والده يعتقد أن ابنه بعد تلك القصة وما عقبها من آثار، أنه بحاجة لامرأة، فكر أنه إذا تزوج ربما يتغيّر، ربما تنقذه حياة البيت والزوجة والأطفال من وحشته تلك..

وأخيراً تمّت الزيجة، لكن زواجه هذا لم يدم سوى بضعة أيام قضاها غسّان مع امرأة هربت منه نهاية الأمر، لأنه لم يكن يكلمها كلمةً واحدة، وفوق ذلك ما كان يكفّ عن التحديق بها بطريقةٍ دمرت صبرها. كان يركز نظره فيها وكأنها لصٌّ، يخاف أنه لو غفل عنه لحظةً واحدة فإنه سيسرق منه شيئاً، وبعد نفاد صبرها هرعت المسكينة ركضاً إلى بيت أهلها.

غسان يحب كل شيء حيناً، ويكره كل شيء حيناً آخر، فمزاجه شديد التحول، وما عادت تحركه أو تلفت انتباهه الأحداث الكبيرة، لكن تفاصيل صغيرة تجعله إما في أقصى نشوته، أو في أقصى غضبه، وذاكرته لا يكاد يسقط منها شيء، وطالما اعتبر أن هذه علامة كبيرة على الشقاء.. أن تكون لك ذاكرة لا ينمحي منها شيء. كان يقول «إن هذا النوع من الذاكرة يشبه أن تكون معاقاً، قد تنسى أحياناً أنك عشت كل حياتك أقل من الآخرين، لكنك أبداً لا تستطيع نسيان آخر نظرةٍ مشفقةٍ أو مشمئزة، رماها أحدهم على يديك أو على رجليك، وتشعر أنك تتألم من هذه النظرة في لحظة أكثر من ألم إعاقتك في حياتك كلها». لم يكمل دراسته الجامعية، بسبب تراكم المحاضر المسجلة ضده، وأخيراً فصلوه جراء حدة لسانه. الحدة التي لم تترك له صاحباً. درس الإنكليزية ثلاث سنوات، ولديه افتتان كبير باللغة العربية، حتى إنه يخلطها كثيراً بحديثه، وعندما يكون في مزاج رائق لا يتكلم بغير فصحى رقيقة وسهلة وشديدة الحميمية، يديرها في فمه كأنه يدخنها بهدوء وخدر، فتبدو منه وكأنها شيء فوق اللهجة ودون الفصحى، هو لا يكتب كثيراً، وإذا كتب بعضاً

مما يعيشه في الحياة أو في الحلم كتبه إما ببعض الورق المتناثر أو في دفترٍ قديم، يحتفظ به من أيام دراسته، ثم يملّ سريعاً. يقرأ كل ما يقع في يديه، وحين يعجبه شيء في جريدةٍ أو روايةٍ أو ديوان شعر، فإنه يقص ما أعجبه ويضعه في جيبه، وحين يأوي لبيته يرجع لنقل ما في تلك القصاصة إلى ورقة خارجية بخط يده، وبالحبر الأسود الذي يحبه، ثم يثني تلك الورقة ويضعها مع سابقاتها، كان يحبّ أن تختلط أوراقه وكتاباته بقصاصات الآخرين. كان مفتوناً جداً بالروايات والشعر والفلسفة، ويقضي أوقاتاً طويلةً مع الأفلام والموسيقى والانترنت. كل الذين من حوله مهما وصفوه بالجنون أو الغرابة، إلا أنهم يعرفون أنه مهووس بتعلّم كل شيء يصل إليه، ولم يتحدثوا في شأنٍ لم يفاجئهم بطريقته الساخرة والعميقة في تحليله، وتفسير جوانبه، وغالباً ما تتصاعد نبرته وهو يتكلم على أي أمر أو شخص حتى تتحول إلى غضب ونقمة، ولا يتوقف إلا بعد لعناتٍ شديدة الانفعال والطرافة، أو بشتيمة كل شيء والبصاق عليه نهاية الأمر!

حين بلغ غسان الرابعة والأربعين كان قد اعتاد أن ينام يوماً، ويصحو يومين، وهكذا تدور حياته منذ وفاة والده التي آلمته كثيراً، لكنه تجاوزها سريعاً لأنه في الأصل كان فاقداً لمعنى أي شيء. كان يقضي وقته حين يستيقظ إما خالياً بنفسه، وأحياناً لا يخرج من مسكنه إلا إلى المطار الدولي، وإما يكون على الكورنيش أو في الشوارع والأسواق، يجول بها وحده دون ملل ولا كلام أكثر من عبارات مقتضبة لطلب الشاي أو القهوة أو

السجائر، مسمّراً عينيه في الغادين والرائحين أمامه، لا يلقي سلاماً على أحد ولا يرد على أحدٍ السلام. ليس مجنوناً ولا مختلاً لكن له آراءه واعتقاداته الشخصية التي يعيش بداخلها، ويحياها بيقينٍ جارف ويصاب بالذعر عندما يقترب أحدٌ منها، ولشدة إيمانه بالطريق الذي أفضت إليها حياته بكل تقلباتها، فإنه لا يأبه لأيٍ كان وهو يردد — ساخراً — حين يتجاذب الجدال مع أحد، أنه لا يهتمّ لشيء مما يحدث، حتى لو انطبق عاليها على سافلها، وإذا حدث وسئل عن خطأ من أخطائه أجاب بتنصّلٍ مليء بالاستهزاء من الناس ومن نفسه وساخراً من عائلته بالرغم من أصالتها؛ أنه على يقينٍ أنه لا ينتمي لهذا المكان ولا لهؤلاء البشر، وأن سفينةً قديمةً قذفت بأحد أجداده على ميناء هذه المدينة؛ ويضيف دوماً وهو يقهقه أنه لا يتمنى شيئاً أكثر من أن يجد تلك السفينة، ليعود على ظهرها من حيث جاءت، ويحلف بحق اللّه وأنبيائه أنه لو وجدها ذات يوم، فإنه سيحوّلها إلى سفينة قراصنة، وسيغزو بها هذا العالم الجبان.

ترك له والده عمارتين مأهولتين بالمستأجرين، وبيت العائلة، الذي لم يعد به سواه، وفوق هذا خلّف له أربعة ملايين ريال، مقذوفاً بها في أحد البنوك، لا تكاد تنقص إلا لتزيد من الإيجارات السنوية.. وباستثناء عنايته المبالغ فيها بنظافته وهندامه، فإنه لا شيء من كل هذا يظهر عليه؛ ولا أحد أصلاً يتوقع أن غسان، هذا الشخص الغريب، يملك حتى الشقّة الصغيرة التي يقطنها في أعماق جنوب جدة، أو ذلك الشاليه الصغير في شمالها، تاركاً كل شيءٍ خلفه في يد صديق والده

«آدم». هو الذي يجمع الإيجارات، وهو الذي يتعهد البيوت والمصالح، وهو الذي يودع الأموال في حساب غسان.. آدم الذي طلب منه والد غسان العهد أن يقوم بحياة ابنه من بعده. كان يبثّه في لحظات اليأس واشتداد شعوره بالموت «يا آدم، ولدي غسان، لا يهتمّ لحياته. فبحقّ اللّه والعِشرة والنعمة أن لا تتركه، ابني أمانة في رقبتك»، ثم لا تهدأ نفسه حتى يقسم آدم هذا إنه لن يترك غسان حتى آخر ثانية في حياة أحدهما!

منام العدم

١٩٧٣ -

(هذا أنا وهذا أنت، يا حائط العدم، أيها السور الوحيد ورائي، كل ليلةٍ أراك يا موتي الأزلي، أحنّ لك وأرجع إليك. لم يألفني سواك. لم تقايضني ذات يوم مهما اتكأت عليك. لم تذكرني بالعِشرة والوقت، ولم تنظر إليّ كنذلٍ أو خوّان..

وهاهم يا حائطي، هاهم هناك خلفنا، يتجولون ويتحدثون عني وعنك كمريضين بالسلّ، وأنا وأنت يا جداري نسكت.. نسكت ونتعالى فماذا يبغون أكثر!

وأنا وإياك نعرف كم هو رثٌّ في حقيقته هذا الوجود، وتعرف كم حاولت أن أحصّن قدري بالشراسة، وأعرف من داخلي كم كابرت، أعرف كم الحب مهزومٌ، ولكنني بكل قساوة ممكنة، لم أتصرف لحظةً كالخاسرين. كنت أصمد حتى أخلو بك وأستند إليك، حينها أفركك بسائر جسدي وأتلوّى كالشهيد قبل أن يموت، وأتمنّى لو يخسف اللّه بهذه الأرض. تعرف، وأعرفُ.. واللّه أعرف!)

٢

لماذا!

باللّه لماذا تهرب حكايات الأيام وتبقى الجدران؟

اللّه.. يا رب المسافرين، كلّ بيتٍ مهجور لم تتوقع مصيره أول لبنةٍ فيه، ولا توقعت قصصه الشقوق، ولا الزوايا. كان كل شيءٍ ينمو فوق بعضه دون أي سؤال، دون أن تخمن الأبواب والشبابيك والممرات كل الأسرار والموتى، دون أن تحصي المارّين الذين يتجاوزونها بلا أي اكتراث، هذه هي القصة الطويلة التي تذهب وترجع، هذه هي القصة المكرورة، التي تقول بصراحةٍ كاملة بأن كل شيءٍ على هذا الكوكب محكوم بالزمن!

السعوديون..

بعد ألف ألف عام لن ينسى هذا العالم السعوديين وقصصهم. السعوديون الذين عرفوا طريق الرحلات الدولية، يسافرون إلى القاهرة، إلى المغرب.. والسعوديون الذين عرفوا طريق الرحلات الدولية يسافرون إلى لبنان. السعوديون الذين عرفوا لبنان بالذات، يسافرون إليه كثيراً على مدار العام! لبنان قريبٌ جداً منا، إنه على بعد ساعتين ونصف الساعة تقريباً، من

الرياض أو جدة، والسعوديون يأتونه طوال السنة.. يعج بهم الفينيسيا، والموفمبيك، وكوستا، وستارباكس، والوايت هاوس، والميوزك هول، والأوتار، والسيتي مول، والسوق العتيق، ومطعم منير، والمونو، والسوديكو، والجميزة، والمعاملتين، والسوليدير.. السوليدير مليء بهم كل حين، لكنه في أواخر الصيف يتحول إلى شارع خليجي بحت، ممتلئ بالسعوديين، والقطريين، والكويتيين، والإماراتيين، بعد عودتهم من باريس وجنيف ولندن، حيث يضاهي بعضهم بعضاً بالخيلاء المريضة والماركات العالمية، والطاولات المزحومة بكل شيء. هناك تكاد تختفي عباءات النسوة السوداء. تطير فكرة الحرام والحجاب والعيب التي يتشدقون بها في بلدانهم، ويصير اختلاس النظر وابتلاع الوجوه المارة والابتسامات شيئاً عادياً، لا أحد يقرّع أحداً عليه. هناك تسمع كلمة «يا شيخ» تتطاير من كل صوب، وتخرج من تحت الطاولات ومن بين أعقاب السجائر ودخان النرجيلات. يصير الجميع شيوخاً ما داموا يلقون بمئات الدولارات والبطائق البنكية بأيدي النادلين، الذين لا يتوقفون عن ترديد تلك الكلمات البلهاء بنهم: «يا شيخ.. طال عمرك يا شيخ»..

وغسان واحدٌ من هؤلاء السعوديين، الذين لا يرجعون من لبنان إلا وهم مشغولون بالعودة إليه. يزوره كل شهر، وأحياناً أقل من ذلك، لكنه يندر أن تكتمل ثلاثون يوماً بين رحلتين. غسان مزاجه لا يشبه مزاج السعوديين لأنه لا يحتمل زحام بيروت، لا يحب المدينة نفسها ولا يذهب إلى أماكنهم، بل يعشق الجبال المحيطة بها، يعرفها متناً متناً، من المتن الجنوبي

إلى المتن الأعلى إلى المتن الشمالي، وهذا الأخير وجد غسان ضالته فيه، أو قل وجد عالمه وأشجاره وحتى نواياه وأحلامه وبقايا من خيالاته، وجدها في جبل المتن. يسكن في نزلٍ قريبٍ من قمته بمسافة ليست بعيدة، وعندما يستقر هناك لا يكاد ينزل للمدينة إلا عندما يعلم عنه بعض معارفه القدامى في لبنان فيواعدهم مرة، ويخذل لياليهم مرات! يستيقظ عصراً، ولا يغادر الشرفة، يفتح جهازه (اللابتوب) ويفتح أحد الملفات التي كان قد عكف لسنين على جمع أغنياتها من الانترنت والأصدقاء وغير ذلك، ثم يشغّلها دون ترتيب، وبعد أن يشعر بأنه اغتسل من تعب ليلته الفائتة وبقايا نومه الخفيف، ينصرف قليلاً عن أغانيه ويفتح كتاباً أو جريدة، ويشعل أول سيجارة.. ويشرب القهوة التي لا يحبها كثيراً، بل لا يتذكرها إلا في هذا المكان، وعندما يحلّ الليل ويكتمل، يرتدي ملابسه ويتصل بالسائق ليأخذه إلى أي مطعم.. ومن ثم إلى أحد الأماكن العامة التي لا يتوقف سهرها حتى قبيل الفجر، وفي أي مكانٍ يذهب إليه يجلس وحده، من دون أن يلتفت لأحد. يعود الثالثة فجراً، يدخل إلى نزله، لا يخلع ملابسه بل يذهب لإتمام ليلته في الشرفة، مهما كان الجو بارداً. كان أكبر سحرٍ يغرق فيه أن يجلس تلك الجلسة في ذلك الوقت، بينما المطر ينصبّ من السماء صباً أمام عينيه، والبروق تتقادح هنا وهناك في نواحي السماء، ومهما طاله من الرذاذ الذي ترمي به الريح عليه وعلى ملابسه، فإنه لا يتزحزح، وكأنه على عرش حياته. قبيل طلوع الشمس بساعة يقوم من على كرسيه، بكل اندفاع، وكأنه لم يكن ساهراً طوال الليل. يخرج

ليمشي على قدميه، ولأول ما يتجاوز الباب يشغّل ألبوماً كاملاً في جهازه الجوال، ويضعه في الكُم الأعلى من الجاكيت، ويبدأ في السير.. ينتقل من حرج إلى حرج، ومن طلعةٍ إلى أخرى، يسير صعوداً دون اتجاه.. يسير يسير حتى تبدأ لسعات الشمس تؤذيه، فيستدير ويرجع أدراجه، وفور وصوله إلى داره.. ينام. غالباً تكون الساعة قد شارفت التاسعة.. وهكذا يفعل غسان كل يوم، وهذه هي أيامه وزياراته الدائمة، التي يقضيها في «المتن».

منام الفاتحة

يونيو ٢٠١٠

(سامحيني..
تدرين أني مشهّبٌ بأصواتٍ تأتي من الغيب،
وكتفاي واقفتان على أغنياتٍ ليس لها سبب..
وأفكر في الأشياء البليدة، والكلام الهشّ!
هيّا هيّا.. خذيني إلى أفواه الزنابق،
فأنا رجلٌ منهكٌ من الأيام التي تحدّق في عينيه،
أدركيني، وخذي صورتي من أكمامهن وجيوب الحقائب..
احكي لي.. وأغيظيني بنومك الأزرق،
ولا تتركيني لقهقهات الخطايا!
آآآخ، وأنت يا ربّ الحصون.. فكّر بي؛
أنت تعرف أني مثل صغارك المطبوعين بالفحم والجدران،
مثل وعدٍ على كفوفٍ تشبه بعضها،
مثل نيزكين ارتطما بشرفةٍ في الضواحي!
فكر بي..
فأنا واحدٌ من جندك القساة،
وفي جبهتي عصابةٌ من الصيحات
والمياه الصريحة!)

٣

يوماً.. وفي واحدة من إقاماته بالجبل، خرج غسان فجراً كعادته يمارس هواية المشي. استمر ينتقل من حرج إلى حرج. كان يتعمد الخروج عن طريق الإسفلت كلما حدَّث نفسه أن انزلاقه بين الأشجار قد يثير ريبة من يراه، مع أنه يعرف أن لبنانيّ الجبال لا يتنازلون عن الصباح، لكنه أيضاً جرَّب، مرة ومرتين وكثيراً، أن يمشي أمامهم وقريباً منهم وبين بيوتهم، ومن تحت شرفاتهم، فلم يجد منهم استنكاراً ولا استغراباً، تيقن أنه ربما كان أهل الجبال، في كل مكان، لا يستكثرون الصباح على أحد..

في ذلك اليوم مشى أكثر من أي يوم مضى، وبينما هو يفكر بالعودة، وكان قد ابتعد كثيراً، رأى بيتاً علقت عيناه به كما علقت الأشجار بحيطانه من كل جانب، وتحرك في نفسه شيءٌ ما، ودون أن يفكر اتجه نحو البيت، قال في نفسه إنه سيقترب فقط، وينظر إليه ليشفي فضوله ثم يذهب. جزم أنه سيذهب، لكنه كلما اقترب أكثر انتصب طمع المغامرة في نفسه أكثر.. اقترب واقترب حتى وقف على التلّ الصغير الذي يربض ذلك البيت تحته كوعلٍ أليف. كان أول ما رآه أن بعض الحيطان متهتكة، ونوافذه مشرعة وبعضها مخلوع. كانت النفايات والنباتات متناثرةً في فنائه. ذاك

المنظر أكد له أن هذا البيت مهجور من زمنٍ ليس بالقصير، وأن أهله إما غادروه ونسوه تماماً، أو أنه لم يعد لهذا البيت الوديع والمستوحش من أهل. نظر يميناً ويساراً فلم ير أحداً قريباً من المكان، تراجع لوهلة وقال في نفسه مرةً أخرى إنه لن يدخل، ماذا لو رآه الجيران ولو عن بعد، وهو يقتحم بيتاً في جبلهم، لاسيما وهو الغريب الذي لا يعرفه غير حارس السكن، وهو فوق هذا «سعودي» يفهم — آسفاً — كم صار السعوديون محاطين بالشبهات أينما حلّوا، لكن شيئاً ما في حسّه حسم الأمر ودفعه ليرمي بكل مخاوفه إلى المجهول الذي جاءت منه.. ونزل سريعاً إلى البيت. وقف أمام باب فنائه لثوان، ثم اندفعت كلتا يديه، بلا شعور لتفتح الباب، ولتحظى بأول لمسةٍ لهذا البيت الذي تطفح الحكايات من فوق أسواره وشبابيكه، وبين نباتاته المبعثرة في كل ناحية. دخل ووقف في الفناء وتأمله برغبة مثيرة، ثم دخل البيت نفسه، تجول فيه غرفةً غرفة. رأى البقايا التي لم يكترث الراحلون لها. كان الضوء يخرق ساحات الغرف نافذاً إليها من الشبابيك المخلوعة. بعد حين خرج وعاد إلى الفناء، ووقف مرةً أخرى فيه.. رأى مكاناً سلب عينه أكثر من أي جزء فيما رآه، فاتجه إليه؛ كانت الزاوية التي يلتقي فيها الحائط بالفناء بظهر التلّ. وقف هناك وشعر أنه وهذا المكان بالذات متآلفان للدرجة التي راح يلمسه ويتحسسه وكأنهما كانا على موعدٍ قديم، وعندها شعر أن له هنا سرّاً كبيراً من أسراره الشخصية، التي يتلذذ بحياته معها وفيها، دون أن يعلم عنها أحد. وفي تلك اللحظة هبطت على رأسه وقلبه فكرة. لم تكن فكرة.. كانت شيئاً أشبه بوخزة

الغيب، كما يحدث أن يشعر أحدنا في لحظة أو موقف ما بأن شيئاً يقول له «هذه لحظتك»، «أو هذا الشيء لك» أو « الآن.. مصيرك»، لكنه لم يدر ما يفعل، لم يدر كيف يعالج هذا الغيب الذي انهال على صدره دفعةً واحدة!

خرج من الفناء ومشى سريعاً، وهو لا يكاد يعي شيئاً مما فعله قبل قليل، لكنه كان سعيداً ومنتشياً. كان متلهفاً أن يرجع إلى نزله ليستلقي على فراشه ويتأمل ما حدث مغمضاً عينيه، سابحاً في هذه المصادفة التي حركت في نفسه عالماً كاملاً من الأحاسيس التي لم يوقظها في نفسه شيء من قبل.. عاد إلى نزله بالفعل، وهكذا استلقى وتأمل.

* *

في اليوم التالي كان غسان واقفاً عند تلك الزاوية بالفناء، بيده إزميلٌ صغير أخذه من حارس المجمّع السكني الذي يسكنه. سلّ إزميله وأخذ يحفر في الحائط من الناحية الملاصقة للأرض في أقصى الزاوية. واصل عمله حتى فتح كهفاً صغيراً بحجم صندوقٍ صغير، كان بالضبط يكفي ليكون مخبأً لنوم قطّة كبيرة مع صغارها. بعد أن انتهى نظّفه من التراب وفتات الحصى، ثم أخرج محرمةً بيضاء كبيرة وفرشها في أرضية كهفه الصغير، ثم وضع عليها أول لفافتين قماشيتين معقودتين، ووضع معهما قبضة عشب نزعها من العشب النابت داخل البيت المهجور نفسه، وبعد أن انتهى غطى فتحة الكهف بصفيحة حجرية سدّت مدخله تماماً، ثم غطاها بما أمكنه من جمع الركام والقش، وانصرف. فعل هذا بدقة كاملة، كأنه كان يخطط لهذه اللحظة كل عمره.

لخمسة أيام أخرى ظلّ يأتي كل صباح إلى حفرته ويضع فيها لفائف جديدة.. ثم رحل عائداً إلى السعودية، لكنه صار كلما جاء مجدداً إلى جبل لبنان عرج إلى ذلك البيت المهجور وفتح كهفه الصغير، وملأه بلفائفه المعقودة، استمر يفعل هذا رحلةً بعد رحلة. لقد عرف في فراشه أو في منامه أو في لحظةٍ ما من لحظاته بعد أن عاد من أول زيارةٍ لذلك البيت المهجور، عرف ما معناها لذعة الغيب اللذيذة تلك، التي قدحت في قلبه، وهو يقف بالزاوية. فهم غسان أن عليه أن ينقل أسراره من أرضه إلى أرض أخرى، من وطنه إلى مهربه.. كأنه كان يبحث لكلماته والكلمات التي أثرت به عن أمانٍ بعيد، ففعل ذلك بامتثالٍ خاشع وتام، حتى إنه لم يفكر أبداً في معنى أنه يخرج أسراره من أمكنةٍ نشأتها وذكرياتها وحكاياتها، ولم ينظر للأمر على أنه تحرير لأسراره من المكان الذي ولد وعاش فيه.. وإنما كأنه وجد في تلك اللحظة، وذلك الكهف الصغير باب القفص الذي يمكنه أن يطير منه ، بل كأنه وجد الفرصة الخصبة للفائفه القماشية المعقودة.. كي تواجه الحياة!

منام

يناير ١٩٧٣

(امرأة لم تبلغ الأربعين بعد، تمشي بين رجالٍ يصفرون لها، وهي قابضة يدها على شيء يتحرك، وكلما مشت أكثر اهتزت يدها أكثر، وعلا تصفير الرجال أكثر. رأت باباً مفتوحاً فدخلته، واستلقت بجوار الموقد. كانت جميلةً ومتعبة وتئن. وعندما لم تعد قادرةً على احتمال ما يتحرك في يدها، فتحت كفها، وقفز منها شيءٌ بلمح البصر إلى النار، فتحركت النار مثل حركته، صارا شيئاً واحداً.. والبيت كله أضاء، ولمع البريق من النوافذ. غطت المرأة في نومٍ عميق، والرجال جلسوا بصفيرهم عند الباب!)

٤

لم تنم ماريا طول الليل. عند كل امرأة أسبابها كي لا تنام، لكنهن، في الغالب، يدرن ظهرهن لكل شيء ويرقدن، وماريا لم ترقد أخيراً، بل بقيت تمشي في بيتها، من الطابق الأعلى إلى الأسفل والعكس، وتروح من غرفتها وتجيء إليها دونما سبب. شعرت أن قلقها وأرقها هذه المرة فوق العادة. لم تتضايق، ولم تكره أنها لم تنم، لكنها في الوقت نفسه شعرت بأشياء غريبة تتقافز في داخلها، دون أن تفهم شيئاً. فتحت الانترنت ودخلت أحد المنتديات، التي تعتادها من حين إلى حين، وفوراً وقع العنوان، ذو الكلمتين، على عينيها، وتمتمت بابتسامة «آي» . . كما لو أنها دهست دبوساً صغيراً. كان ذلك العنوان في ذهنها تماماً مثل الدبوس، بقدر ما هو مؤلم، بقدر ما فيه من فرح الحكاية. ستجد ما تقوله للآخرين. ستبدو وكأنها ستبادرهم وهي تعرج بخفّة، أنها دهست دبوساً، وسترى صورة الألم في عيونهم. . لكنها لن تخبر أحداً بالحكة اللذيذة، التي يتركها الدبوس وراءه بعد حين من نزعه!

كان العنوان «كتابة النائم» . . «آي! ما الذي سيكتبه النائم؟». هكذا خطر ببالها، وهي تمرر المؤشر على العنوان وتضغط سريعاً

بانفعال. فتحت صفحة الموضوع، وقرأت ما كتبه صاحب الصفحة. . كان شيئاً غريباً!

(الاثنين ٣ إبريل ٢٠٠٦)

«نمت وفي يدي رواية صغيرة، لكنها عظيمة جداً، اسمها «أرض البشر»، لطيّار فرنسي متقاعد، جاب السماء طولاً وعرضاً، يدعى «دي سانت أكسوبري» . . واستيقظت قبيل دقائق. الآن تشير الساعة إلى الرابعة صباحاً، وكالعادة قبل أن أفعل أي شيء، ها أنا أمسك بدفتري الصغير، ذي اللون الأبيض الباهت، وأكتب منامي أو ما أستجمعه منه. أذكر أنني رأيت:

كان الوقت ليلاً. . بالضبط كان منتصف الليل، وأنا في سيارتي وحيداً، والأضواء تتوالى على يدي وهي تقبض على المقود، كأنها تمسحها مرة بعد مرة. كنت قلقاً ومستعجلاً، وشخصٌ ما غاضبٌ مني، وأنا غاضبٌ من كل شيء. أتذكر مؤشر السرعة وهو على الرقم ١٦٠كلم، وكأنني كنت بين مدينتين. والطريق لا تتفرع لا إلى اليمين ولا إلى اليسار. الطريق كانت تشبه التشبث بجذع شجرة في هياج السيل. نظرت ورائي فرأيت حقيبةً كبيرة. وسمعت أصواتاً ووجوهاً وضيئة. وبينما أنا في تلك الطريق رأيت رجلاً حزيناً يدخن بشراهة. كان جالساً وراء الزجاجة الأمامية. كان بديناً ويلبس قبعة، وينتظرني أن أقول له شيئاً ما. فهمت أنه جاء ليسلك الطريق معي. أحببته كثيراً، وتمنيت أن أسأله «إلى أين ستنتهي بنا هذه الطريق؟». لكنه لم يجبني. كان خلف الزجاجة!».

بعد أن قرأت المنام، قالت في نفسها «لا بدّ أن هذا الرجل الذي يكتب بهذه الطريقة ملعون. لقد سرقني.. هذه فكرتي، كيف خطرت بباله!.. هذه هي اللغة التي تجعلني أرشح». كانت تحدث نفسها وهي تنزل إلى أسفل الصفحة لتقرأ التعليقات. وجدت تعليقين عابرين من فتاتين. كانت الأولى تطلب منه أن يكمل حكاية مناماته، ولو بعد مائة عام، واعتبرت تعليقها هذا مجاملةً ممجوجة، والثانية قالت الكلمة نفسها التي ضربت في قلبها، حين رأت العنوان. «ما الذي سيكتبه النائم أيضاً؟». لم تهتم كثيراً. رجعت إلى أعلى الصفحة وقرأت المنام. حاولت أن تفهمه.. وأخيراً أغلقت الصفحة، دون أن تكتب أي تعليق، وانصرفت، وهي تنوي أن تعود. ظلت تفكر في زجاجة السيارة، التي كانت في منامه تفصل بينه وبين الرجل البدين خلفها، البدين الذي كان يدخن بحزن، حتى إنها تخيلت أنه كان يرتدي صوفاً ثقيلاً، لافّاً شالاً على صدغيه، ولم تدر لماذا خطر ببالها أن ذلك البدين كان يلبس نظارة، ولا تدري لماذا تمنت أنه قال شيئاً في الحلم، أي شيء. لم يستمر تفكيرها هذا طويلاً. قررت أخيراً أن تفتح شبّاك غرفتها وتقف أمامه لبعض الوقت، فكرت أنها ربما كانت بحاجة لبعض الهواء النقي الذي قد يخفف ذلك الشيء الغريب في داخلها. فتحت الشبّاك وكان الليل قد انقضى، وشارفت الشمس على الشروق. بقيت واقفةً في شباكها، وبالرغم من الشتاء الذي كان يطقطق في نواحي جبل «المتن» إلا أنها، وعلى طريقة فتيات الأفلام، فتحت صدّارة بيجامتها عن أعلى صدرها. ودون أن تأبه للبرد، كان عنقها ونصف نهديها

مكشوفين، فاردةً شعرها، تحركه نسائم متقطعة بين وهلة وأخرى. كان جسدها يطفو على شيء ما يتحرك لأول مرةٍ في روحها، كانت تحسّ بجريان الدم في عروقها كما لو أنه ماء حار، أو كأنما يخلق في أحشائها مخلوقٌ جديد. هي لم تعرف هذا الشيء من قبل.. حياتها القاسية ووحدتها حالتا بينها وبين أي أمل، ولم يقع في نفسها أن شعوراً غريباً وحلواً كهذا سيتسلل إلى جوفها. ذلك الإحساس الغامض غمرها وهي تفكر في خيال ذلك الرجل الذي يكتب مناماته، وكانت في نافذتها تلك بين الوقوع والطيران، لحظتها فتحت عينيها، وقد بدأت أطرافها ترتعد وعضلات وجنتيها تشتد، حالمةً بأنها قد تفتحهما على أرضٍ غير الأرض، وحياةٍ غير حياتها، لكنها لم تر شيئاً من ذلك، وإنما لمحت رجلاً يمشي بين الأحراج. لم يكن بعيداً ولا قريباً، لكنها على الأقل كانت تستطيع تمييز طوله وألوان ملابسه. رأت أنه يرتدي بنطلوناً أسود وجاكيت سوداء، والجاكيت تنحسر قليلاً عن قميص أبيض. تراجعت ماريا عن واجهة الشبّاك قليلاً، وخرجت من الحالة الخفيفة التي كانت على وشك أن تطير على ظهرها، ووقفت خلف الستارة كي لا يراها، واستمرت في مراقبته. رأته يقترب أكثر فأكثر، وفجأةً انعطف إلى بيتٍ من بيوت جيرانها القدامى. كان البيت مهجوراً من سنوات. أطلّت برأسها أكثر من وراء الستارة مدهوشةً ومتفاجئة من كل ما اختلج في نفسها، وكيف انتهى إلى صدفة أن تفتح عينيها على هذا الغريب. تجاهلت كل الذي أحسته وانصرفت لمتابعة هذا الرجل الذي ظنت بادئ الأمر أنه واحدٌ من عائلة ذلك البيت المهجور، رجع

ليتفقد شيئاً أو يبحث عن شيء، لكن عمَّ عساه يبحث في هذا البيت المهترئ؟ ركّزت نظرها أكثر، وميزت الرجل الغريب أكثر، وتيقنت أنه ليس من أهل الجبل كله، فهي تعرف على الأقل ذلك الجزء من تلك المنطقة. تابعته حتى دخل عبر حائط الفناء الصغير في واجهة البيت واختفى عن نظرها، فاستدارت وأخذت تركض بتسلل لتصعد إلى سطح منزلها حيث يمكنها أن تراه من مكانٍ أعلى. لِمَ تبعته؟ وماذا تفعل غير ذلك في الفراغ المحيط بعالمها؟ نصف أهلها قُتلوا في الحرب، والنصف الآخر هاجروا. لِمَ انتظرت في هذا المكان؟ حتى أنها لا تقوم بأي عمل، يرسلون لها الأموال بين وقت وآخر، لكنهم لا يرسلون من يملأ هذه الحيطان من حولها بالحياة، الشيء الذي كانت تفعله أنها تعمد إلى المكتبات بشارع الحمراء مرةً واحدة في الشهر أو الشهرين وتشتري ما أمكنها من كتب الروايات والشعر لا غير، ولم تكن تقرأ لأي هدفٍ، غير أنها وجدت أن هذه الأوراق المليئة بالكلام يمكنها أن تعينها على ثقل الوقت. فكّرت ذات مرة، إن كانت جميلةً أو لم تكن! هي لم تسأل رجلاً ولا صديقاً ولا قريباً هذا السؤال، يومها ضحكت كثيراً من السؤال ومن الفكرة. ما لا تعرفه أنها كانت جميلة!

أطلّت من فوق السطح بانزواء يسير فوجدته لم يدخل البيت بعد. كان واقفاً في الزاوية التي يلتقي فيها الحائط بالفناء، ثم رأته ينحني ويزيح كومةً من القش والنباتات، ويحرّك صفيحةً صخريّة ويسندها إلى الجدار، ثم يدخل يديه في جيبيه ويخرج من كل منهما أشياء لم تميزها، ويضعها في تلك الحفرة بالجدار، ثم

يعيد الصفيحة والنباتات والقش فوقها. . ويخرج سريعاً. حاولت تمييز ملامحه وهو يعبر قريباً من بيتها في طريق عودته، لكنها خشيت أن تطلّ أكثر فيلمحها ويعلم أنها كانت تراقبه، فأحجمت وبقيت منزويةً حتى ابتعد قليلاً. راقبته وهو يمشي بطمأنينة عائداً إلى الأحراج التي جاء منها، ثم خرج إلى الشارع المفضي إلى أسفل الجبل وسار حتى اختفى خلف المنعطف والبنايات.

في اللحظة التي اختفى فيها الرجل، عاد ذلك الشعور الذي أحسته قبل أن تفتح عينيها لحالته، لكن بشكل أعمق وأكثر إلحاحاً. مرةً أخرى تحرك الشيء في أحشائها، حينها فقط، شعرت بالخوف والذعر من ذلك الحريق الذي انتفض فجأة، لم تعرف أن تحدد مصدره، كان الشعور بالحركة والنار يتصاعد بين أسفل عمودها الفقري ويستقر في كل صدرها. ذلك الشعور وحده كان كفيلاً بجعلها تقفز وهي تنزل عن السطح، حتى ظنت أن باستطاعتها الطيران فجأة دون خوفها المزمن من الدرج العالي والضيّق الذي يلتف حول بيتها، ويودي إلى السطح المكشوف على البحر والغابة.

منام

أكتوبر ١٩٧٣

(رجلٌ بعينين حادتين، وجبهته يلمع الوهج في منتصفها، واقفاً كان على رأس بحيرةٍ سوداء وضخمة، وكان على ضفافها رجالٌ بيضٌ من كل ناحية. بعضهم يضفرون سياطاً طويلة جداً، وبعضهم يدخلون على الناس في بيوتهم وهم نائمون فيخنقونهم. كان صوت الصياح عالياً ومفزعاً. . حينها أحسّ الرجال الذين يفتلون السياط الطويلة بظمأ شديد، وقاموا مهرولين إلى البحيرة، لكنهم لم يروها. لم يكن هناك سوى الرجل ذي العينين الحادتين قاطعاً ما بينهم وبينها، مديراً ظهره لهم. كانو كثيرين وغاضبين. رجعوا للوراء، وشوشوا بعضهم بهمسٍ غامض وحقود، وأعينهم يطلع منها فحم وشرر. قال واحدٌ منهم: نريده أن يموت!).

٥

كانت قد ترددت بداية الأمر ثم ارتدت ملابسها وتسللت من البيت دون أن يشعر أحد ممن تبقى من أهلها في ذلك البيت الريفيّ المسنّ، ونزلت ركضاً إلى حيث كان الغريب. . وهكذا كانت واقفة في فناء البيت المهجور، ماريا، بالضبط في المكان نفسه الذي كان يقف فيه الرجل الغريب، وفي جسدها رعشة كبيرة، نصفها من شتاء الجبل ونصفها الآخر من قلق ما هي مقدمةٌ على فعله. الخوف ملأ حياتها فيما مضى، أخبار الموت وصياح النساء وهن يبكين قتيلاً يحيط بكل ذكريات طفولتها، وشكل حياتها أبعدها عن أي فرصة لخوض أية مغامرة. لكنها أخيراً ومن عميق تلك الرعشة أبعدت القش والنباتات والركام من فوق الصفيحة ثم حركتها. لم تكن خفيفةً ولا ثقيلة. البرد والخوف فقط كانا هما الثقيلين. عندما فتحت الحفرة أطلت برأسها فرأت ما لم تفهمه وما لم تتوقعه، رأت لفائف قماش صغيرةٍ معقودة. . أثارت ريبتها، ولم تملك الجرأة لتمد يدها عليها، فأعادت الصفيحة وكل شيء مكانه ورجعت إلى بيتها بسرعة، ثم دخلت غرفتها واستلقت على سريرها بملابسها وهي تفكر وتفكر، وتتذكر كل شيء دون أن يذهب شيء من حسها

بغرابته ولا بدهشته ومفاجآته، ولا تعرف أية ليلةٍ مرت بها، من ذلك الشعور الغامض الذي داهم نفسها، وحتى تلك اللفائف التي لم تستطع حتى لمسها، لكنها أيضاً لم تستطع نسيانها، لم تستوعب كل ما جرى. كان أكثر ما سيطر على تفكيرها أن ما رأته بداخل تلك الحفرة كان سحراً. بالذات تلك اللفائف القماشية.. وخطر في نفسها أن ذلك الغريب بالتأكيد يعقد أسحاراً، ويستخدم تلك الدار المهجورة لها، ثم ارتعدت قليلاً والوسواس يعلو صوته في نفسها؛ أنه ربما يكون المسحور شخصاً من أهلها أو أهل ذلك الجبل.. فكرت وفكرت طويلاً، وبينما هي في حالها تلك راحت في منام متقطع ومليء بالهذيان لم تتذكره فيما بعد.

* *

عصراً، وبعد منامها القلق ذاك أعدت قهوتها وفتحت جهاز الكمبيوتر لتتغلب على ما علق بذهنها من الغريب ولفائفه.. كانت جالسةً على الكرسي، وعيناها مسمرتان في الشاشة، وتشعر أنها تريد أن تبحث عن شيءٍ نسيت ما هو. بعد دقائق تذكرت صفحة الرجل الذي يكتب مناماته، وكأنها سمعت صوتاً في رأسها يقول بصفاء «كتابة النائم»، وفوراً اتجهت إليها. فتحت الموضوع. لم تجد أية إضافة منه، باستثناء رابط إليكتروني، كان واضحاً أنه لمقطع فيديو.. شعرت بالخيبة، ولم تتحمّس لفتحه؛ فانصرفت إلى التعليقات كلها. لم تجد فيها ما يستحق التوقف. كانت ستخرج، لولا أنها فكرت بدافع الفضول أن ترى ما يخبئه هذا الرابط، وما علاقته بكتابة النائم. فتحته.. كان الفنان «عبد المجيد

عبد الله»، يغني «سألوني الناس عنك يا حبيبي.. كتبوا المكاتيب وأخذها الهوى» – أغنية فيروز. كانت مدة المقطع دقيقة ونصف تقريباً، وما انتهت تلك الدقيقة والنصف إلا وهي تضع أطراف أصابعها، بيديها الاثنتين على فمها وتبكي دونما سبب. أعادت المقطع سبع مرات، وفي كل مرة كان له الأثر نفسه. فكرت في داخلها في هذه الرقة والمشاعر المتناقضة التي تتملكها من ليلة البارحة، لكنها كانت من أعماقها فرحة بما يتخلق في أحشائها بل وتتلذذ به. أخيراً غادرت الصفحة.. ليعود إلى رأسها الغريب وكل ما حدث صباحاً.. ارتدت ماريا ملابسها وقادت سيارتها القديمة الصغيرة إلى الكنيسة المارونية بالجبل. لم تكن متدينةً ولا ملتزمةً بأية تعاليم، أفقدتها قسوة الأيام والذكريات الثقة بكل شيء، لكنها لم تجد طريقاً آخر لتفهم شيئاً مما رأته. بعد أن أدت صلواتها، جلست قدام القسّ وسألته بحذر سؤالاً مبهماً، أن ماذا لو وجدت تحت حائط من الحوائط التي تعرفها لفائف قماشية معقودة، فما الذي يعنيه ذلك، وعلى الفور ودون أن يطلب منها أي توضيح لم تبادر هي بقوله، أكد لها ما كانت تظنه من السحر، وأوصاها بعدة وصايا تحميها من الشيطان.. قال لها إن عليها أن تملأ نفسها بمحبة الله ومناجاته بالصيام والصلاة، وبالأخص صلاة المزامير لأنها قويةٌ جداً وتخيف الشياطين، وأن تهرب من محبة الخطيئة وأن لا تسمح للخوف أن يلامس قلبها.. وحذّرها من الذهاب إلى الأماكن التي لا تليق بأولاد الله، وأن تلتزم بالذهاب الدائم للكنيسة لأن الله قد وعد الكنيسة بالنصرة على مملكة الظلمة، وقرأ لها «أبواب الجحيم لن تقوى عليها»، وذكّرها بأن

الكنيسة تعلمنا في صلاة الشكر التي هي أول صلاة بعد الصلاة الربانية (امنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس، وكل أيام حياتنا بكل سلام مع مخافتك. كل حسد وكل تجربة وكل فعل الشيطان ومؤامرة الناس الأشرار وقيام الأعداء الخفيين والظاهرين انزعها عنك وعن سائر شعبك، وعن موضعك المقدس هذا. . لأنك أنت الذي أعطيتنا السلطان أن ندوس الحيات والعقارب وكل قوة العدو. ولا تدخلنا في تجربته لكن نجنا من الشرير. .)

وأخيراً نصحها إن كانت تلك اللفائف موجودةً بالفعل أن تعود إليها، وقبل أن تلمسها أن تقرأ «يا رب حتى الشياطين تخضع لنا باسمك»، ثم تقرأ ما استطاعت مما يحضرها من الإنجيل، حتى تحرس نفسها من مساس الشيطان؛ وكي لا تؤذيها الجنّ الشيطانية التي تحرس ذلك السحر، ثم تأخذها وتحرقها حتى تصير رماداً. . قال لها: «إن اللّه دلّك على ذلك المكان لكي تخلصي مسحورين أحاطت روح الشيطان بحياتهم واستعبدتهم لمن سحرهم. . لقد أرسلك اللّه لكي تنزعي باسمه سلطان إبليس عنهم، وتعيديهم إلى عبادة الرب ورحمته. . ».

رجعت ماريا إلى بيتها، وبقيت طول الوقت مشغولةً بما تتابع على نفسها وذهنها وخيالها منذ فجر أمسها؛ الأرق، والرجل الغريب، والبيت المهجور، ولفائف السحر، والقسّ، والجن، والآيات التي لم تتوقف عن ترديدها أبداً. حاولت أن تنام لكنها لم تنجح، سهرت وهي تصلي وتطلب من اللّه أن يمنحها القوة لتنفيذ ما أرسلها إليه، ولتخلص المسحورين الذين حرمهم الشيطان حياتهم!

تذكرت الانترنت والذي يكتب مناماته، وشعرت أن كلماته يمكنها أن تقف معها أو تسليها في قلقها ذاك. فتحت صفحة المنامات وليس في نفسها أي احتمال لأية مفاجأة، لكنها صُدمت بأن الرؤيا الثانية كانت أمام عينيها، فأحست برهبة صغيرة وسعادة هائلة وكادت تصرخ. حشدت تركيزها وأغمضت عينيها قليلاً لتهدأ، وتنفست بعمق وبدأت تقرأ:

(الاثنين. . إبريل ٢٠٠٦

نمت بعد ليلة مليئة بالضيق، كنتُ أشعر أن الأرض خلت من كل شيء، وأنني والشوارع لا نعرف ما الذي نفعله. كنا نريد أي نهاية!

البارحة رأيت في منامي أنني أقف على رأس جبلٍ أعرفه جيداً، والسحب تمرّ بجواري. كانت قريبة للحد الذي ظننت أنها ستأخذني، وأنا خائف وفرح، وفي الوقت نفسه كنت غير قادرٍ على لمسها. نظرت إلى أسفل فرأيت النهار، وسألت نفسي «كيف يمكن للنهار أن يكون شيئاً محدوداً وقزماً بهذا الشكل!» كان النهار يحفّ بحيرة، والناس يمرون بها ولا ينظرون إليها، رفعت نظري قليلاً ثم أعدته فلم أر شيئاً، لا جبلاً، ولا سحباً، ولا نهاراً، ولا بشراً، ولا بحيرة. كنت معلقاً في جوّ شديد السكون، لكنني أطير في الليل، وبينما كان يغالبني البكاء سمعت صوتاً خفيضاً كالهمس وأقلّ من ذلك. لم أستطع تمييزه، لكنه كان يعلو شيئاً فشيئاً حتى تحرك فمي. الصوت جاء من البعيد، واستقر في صدري. صار فمي يغنيه بوضوح دون عمد. نظرت

إلى أصابعي فرأيتها ترتعش ويخرج منها سوادٌ مرّ.. وكنت أحس بالدُّوار والهواء!).

أخذتها تفاصيل الرؤيا بعيداً حتى إنها أوشكت أن تنسى قلق اللفائف. عاشت ما قرأته وكأنه ليس منام شخصٍ آخر، بل قرأت وقرأت حتى أحسَّت وكأنها في تلك اللحظة نائمةً، وأنها ترى أنها على الجبل نفسه، وترى البحيرة والناس الذين لا ينظرون إليها، والنهار القزم، وأحست بالسكون الرهيب، وشعرت أنها سمعت ذلك الصوت الذي كان يكبر شيئاً وشيئاً، وهو يأتي من البعيد، ويملأ فمها، ويتخلل جسدها.. انتبهت أنها مستيقظة وأنها لا تحلم، بل تقرأ حلم رجلٍ يكتب في مناماته، وتذكرت أنها تنتظر طلوع الفجر لتذهب إلى البيت المهجور وتحرق اللفائف. أعادت قراءة المنام كثيراً. شعرت من داخلها للحظة أنها عرفت الصلة ما بين أغنية «سألوني الناس» وعبد المجيد عبد اللّه، وصاحب المنام، ثم قرأت مرة أخرى فشعرت أنها لا تعرف أية صلة.. وبقيت هكذا بين هاتين الحالين النقيضتين!

في النهاية عاد لها قلق الرجل الغريب كاملاً، وما يمكن أن يحدث بعد سويعات عندما ستذهب إلى الحفرة لتتلف لفائفه السحرية، فقامت من على الكرسي، وتركت الجهاز مفتوحاً.. انتظرت ما تبقى من الليل، حتى طلع الفجر؛ وكانت قد عقدت أمرها أنه فور طلوع الشمس ستذهب لذلك البيت المهجور ومعها بعض الوقود. وقفت أمام النافذة بأرقٍ أعنف من أرق ليلتها

البارحة، وبينما هي تنتظر الشروق، وفي الوقت نفسه بالضبط لمحت الرجل الغريب مرةً أخرى يخرج من المكان نفسه الذي خرج منه أمس، ويتجه إلى البيت المهجور نفسه.. تراجعت للوراء كي لا يراها، لكنها هذه المرة لم تشعر بالفضول بقدر ما شعرت بشيء بين الانجذاب للإثارة التي تملأها وبين الكراهية. تمنّت لو تصيح بأعلى صوتها وتوقظ أهل البيوت المحيطة كلها ليقبضوا على هذا الغريب الساحر الشرير، لكنها لم تفعل وإنما صعدت إلى سطح منزلها وراقبته كما فعلت من قبل، وفوجئت أنه يقوم بما قام به أمس؛ يدخل الفناء، ثم يقف بالزاوية التي يلتقي فيها الحائط بالفناء، ثم يفتح ذلك الجحر الصغير ويخرج من أكمامه أشياء ويضعها فيه، ثم يعيد كل شيء مكانه وينصرف!

بعد أن توارى، لبست ثيابها، وشحذت قلبها بالإيمان والشجاعة، وأخذت الوقود وأعواد الثقاب وانطلقت إلى المكان نفسه وهي تقرأ كل ما تحفظه من الآيات والصلوات. فتحت الجحر وأخرجت اللفائف ثم كومتها فوق بعضها، وفتحت قنينة الوقود كي تصبها عليها. كان الخوف قد ذهب عنها، وأحست بطمأنينة غريبة وهي تفعل ذلك، وشعرت أن شيئاً إلهياً بالفعل يساعدها، وأن اللّه قد اختارها وأرسلها لهذه المهمة وهو يقف معها الآن.. وبينما هذه الطمأنينة تغمر قلبها، وقبل أن تصب أول قطرة على كومة الغريب، خطر ببالها أن تفتح إحدى اللفائف. فكرت أنها ربما تجد اسماً من أسماء أهل الجبل الذين تعرفهم، وحدثت نفسها أنها ستشعر بالفرح والفخر عندما تعرف على الأقل واحداً من الذين خلصتهم.. وأكثر من ذلك كانت قد

شعرت بشيءٍ غريب يدفعها لتفتح إحدى اللفائف وارتاحت لهذا الشعور، وبدون أن تتذكر الجنّ والسحر، ودون أن يتحرك في نفسها خوفٌ أو قلق أعادت قنينة الوقود إلى الأرض ولم تغلقها، ومدت يدها لأعلى لفافة قماشية واستغرقت في النظر إليها وهي تحلّ العقدة الملتفة على وسطها.. فكّتها أخيراً، فوجدت ورقةً معطّفةً بالداخل. فتحتها.. كانت السطور بالحبر الأسود واضحةً قبل أن تفردها كاملة. أفردتها فرأت أعلى الصفحة عنواناً اسمه «يغنّي القرويّ في نفسه»، وبدأت تقرأ من أعلى الورقة:

«سئمت من هذه البنايات الطويلة، أريد أن أرجع إلى أصلي. اليوم جاءتني قبضة كبيرة من الريحان. شممتها فخرجت من بين أوراقها وجوه قديمة أوشكت على نسيانها.. أنا قرويٌّ لا يغيره شيء، والقروي يحكي دوماً لبستانه: الآن.. بحوزتي الكثير من المرارة، وأحتاج إلى عراء بعيد، أحتاج إلى جذع الطّلح بحلمي، أحتاج أن أمسك بشجرة من عنقها، أن أخنقها وأحلف لها أنني لا أرى الظلّ، وأن هذا الماء على خدي دمٌ أبيض. أحتاج أن أقول بلا خجل بأنني رجل من آخر الريف، حين يرى غصناً مكسوراً يقبض على قلبه!

يحكي القروي للسنبلة: في غابة هذا الليل.. عندما خلوت بالزهرة، سألتها باللّه والرائحة؛ من أين لي بيأسٍ له قرونان، كي ينطح هذا الصدر، حتى يخور!

يحكي القروي للقنديل: أيتها الفراشة التي تحوم على سراجي منذ الأزل، ربما ألهمك اللّه كلام الغيب.. فقولي له إنني

أشتهي غاراً بحجم مساحتي من الكون، قولي له إنني لا أعرف أين فقدت مظلتي، وأن الشمس أنهكتني، واهمسي في أذنه بأني انتظرت حتى نامت أحلامي، ثم ختنتها.. ومشيت.

يقف القروي أمام جدار بيته القديم: أنا وأنت أيتها الحجارة وحدنا. كلانا تجرحنا البقايا!

يحدق الفلاح في الناس والغيمة: لن تحتاجوا لحيلة أهازيج الحصاد، ولا للكلمات والقمح، لكن ضعوني وجهاً لوجه أمام المطر، والضباب، والحناء العالق برجلي أمي.. سترونني كيف أنحب كرضيع عار!

يغني القروي في نفسه: سأرحل، لكن وأنا أعبر هذا الصباح.. أنت أيها الظلّ، اخدعني لمرةٍ واحدة، وقل إنك ستعلّم قطراتك الضعيفة أن يتشبّثن بغير الشوك وحوافّ الأغصان والزنك؛ وأنتِ أيتها الشبابيك القروية، اكذبي وقولي إن اسمي لم يعد عالقاً بالخشب والزوايا والذهاب..

يتذكر القروي خيال دبّورٍ صغير، والدبور ينقضّ على نحلة مشغولةٍ بالزهر.. هكذا تهوي يد هذا الليل على السنابل!

يسألون الفلاح «ما تنتظر؟» فيجيبهم «لا أعرف، لكنها لم تمت سيقان الذرة بعد».

يتذكر القروي جاره وهو يصيح: أيتها الظلمة الخرساء.. قولي لي فقط: كم يكفينا من الوقت لنيأس معاً.. وأنت أيها الجدول الأحمر الذي يصبّ في عروقي، قل لي: كم يلزمنا من النسيان كي نكفّ عن الهرولة!

وينظر القروي إلى ذراعيه ويغني: سامحني يا جسدي الهزيل

على هذا التيه.. أنت حصّالةٌ قديمة، وأنا أملأها بالأرق والخيالات..

يناجي الفلاح ربّه: من فضلك يا رب المطر القرويّ.. يا ألله، يا سيد الشتاء والحنين، يا رب أمي والبروق التي تلمع ساعة الفجر، اعطني ميتتي في هكذا ليلة، واسمح للبرق والمطر أن يشيّعاني!»

ما كادت تنتهي ماريا من قراءة هذه الورقة إلا وعيناها توشك أن تقطرا، أعادت قراءتها مرة واثنتين وثلاثاً، وهي تتمتم «يا ألله يا ألله». نسيت السحر والجنّ والقس والآيات والمخاوف، قالت في نفسها إنه يكتب عن قريتها وجبلها.. إنه يعيش معنا، إنه يعرف كل الفلاحين الذين خرقت أجسادهم طعنات الرصاص.. هذا غير معقول! ثم فكرت أن تفتح اللفافة الثانية، وقالت إنها ربما تكون كالأولى، وفتحتها فوجدت ورقةً أخرى بالفعل، ورأت أثر الحبر الأسود وهي تفكها طيةً طية، حتى إذا فتحتها كاملةً لم تجد عنواناً، والورقة تبدأ بالسطور السوداء من أعلاها، كان المكتوب هذه المرة قصيراً.. قرأت:

«أنا مهزوم هذه الليلة، وكأنما اللحظة الأولى التي يتعرف فيها الإنسان على ألم هزيمته، هي اللحظة ذاتها التي يتعرف فيها على ملامح قلبه، إنني أعرف ملامح قلبي.. أنا رجل يعرف آلام هزائمه كلها.

.. قلت لها إن الطريق إلى قلبي الذي عجنته خيبات الحياة

ومراراتها صعبةٌ ووعرة، لأنه لا يكاد شيءٌ يلمسه حتى ينظر إليه بريبةٍ وتوجّس، ثم يجفل عنه كنمرٍ برّي، ويقف بعيداً خلف صخرة صمته، ويكتفي بالتحديق وجِدّة الطبع!

قلت لها: إذا تألّفتِ نمراً واقتربتِ منه حتى تلمسيه ثم فعلتِ شيئاً وجفل عنك، فلا تقفي في طريقه حتى لا يفتك بك، وإن كنت لمست قلباً صعباً ثم جفل عنك فلا تقتربي منه حتى لا يفتك بك».

وضعت ماريا يدها على قلبها، تتحسّس هزيمته تلك اللحظة وتتعرف على ملامحه، عرفت أن لها نبضاً أبعد مما يحتمله جسدها النحيل، وفي كل نبضةٍ يقرعها ذلك القلب فإنه يدفق معه أحلاماً لم يسعفها الوقت ولا المكان ولا القدر لتنال منها أي شيء. خطر في روحها خاطرٌ أنها كلّها هزيمة، هزيمة من لحم ودم، وأن هذه الحفرة بقراطيسها إنما وجدتها بهذه الصدفة الإلهيةً إمعاناً في الألم الذي لم يعبر نفسها شيءٌ ألذّ منه. قالت وهي تمسح أنفها بظهر كفها «لا يكتب هذا الغريب إلا لي، ما أغربها هدية الله هذه لي».

فتحت الثالثة:

«أحدهم قال لي: أنا موسوس.. تخيَّل مثلاً أني أطفئ جوالي عند غروب الشمس كل يوم. أكره هذه اللحظة دون سبب واضح».. وفكرت كم غريبٌ هو الكلام، وغريبة هي علاقة الإنسان بالأشياء! غريبة بحجم غرابة خفايا الإنسان ذاته، وبحجم

غرابة دواخله.. أحدِّث نفسي أني بهذا الثوب أبدو أجمل، بالرغم من أنه ليس ثوبي الوحيد، وأحدِّث نفسي أني بهذا القلم أجيد الكتابة أكثر، ومن هذا الشارع بالذات يجب أن أمضي حين أزور مكاناً خاصاً، ويخطر ببالي أن شخصاً ما.. هذا الشخص لا يعرف عني «أيَّ شيء»، ولا يشاركني بأيِّ شيء»، لكني لا أريد أن تخلو أيامي منه، وأنظر إليه في داخلي كأهم من كل أولئك الذين يقتسمون معي العمر. أقول «إنني متعبٌ من مواجهة الحياة، وأحتاج سلاماً»، ثم أفكر أنه ربما كان هذا الحياد الذي يمثله هذا الشخص المجهول هو الذي يمنحه هذه الخصوصية، ثم أرجع إلى نفسي وأقول «إنني لا أفهم حقيقةً لماذا يصبح للوقت أحياناً معنى آخر مع أشياء وبَشَرٍ دون آخرين».. فأدير رأسي وأسخر من نفسي، وأقول «لماذا يجب أن أركض دوماً وراء التفسيرات.. أنا أعيش حالةً خاصة، هذا هو المهم، هذا هو المهم. وكفى».

توقفت ماريا عن القراءة والتفتت إلى الحفرة وهي تفكّر «هل أنا ذلك المجهول!».

أكملت:

«مرةً سمعتهم، وأعني أولئك الذين ما زالوا يعيشون في ذاكرة حياةٍ مضت وما عادوا يرونها الآن، سمعتهم يتحدثون عن امرأة جميلة، جميلة وبكماء. سمعتهم يقولون إنها منذ ترك القرية الكائنُ الذي تحلم به.. سكتت، ويوماً ما فكروا أنها إذا يئست منه ربما تكلمت، فاتفقوا على أن يكذبوا عليها، وحدثوها أن ذاك الذي هجرها.. مات، فابتسمت وتهلّل وجهها، وفي أوج

دهشتهم.. تكلمت فعلاً، وقالت جملةً واحدة. «أنتم الموتى»، ثم قامت عنهم ومشت سريعاً إلى حائطٍ أسفل القرية، واختفت منذ ذلك الحائط. كانوا يقولون إنه آخر مكانٍ التقته فيه.

أليست فكرة في غاية الجدية والعبث، في غاية الصدق والغباء، في غاية الفنّ والتهوّر، في غاية التعب والراحة، في غاية اليقين والحمق.. فكرة أن يكون الموت موعداً للغرام!

أتذكر الآن عينين نظرتا إليّ بشرود، حدث هذا قبل وقتٍ طويل.. عينان لا أعرفهما ولم أتعمد رؤيتهما، لكنهما تعيشان في داخلي للأبد.. وتنظران إليّ».

قبضت ماريا على الورقة بشرود.. تذكرت أشياء مشابهة؛ عيوناً لم تنسها، ووجوهاً عبرت ذاكرتها واستقرت بها.. تأملت الملابس التي تحبها، والأرقام والألوان، وحتى مشابكها وأدراجها التي تتعلق بها. فتحت الرابعة وقد استسلم قلبها وجسدها وروحها تماماً للكلمات، وقرأت:

«لا تدخلوني مدائنكم، لا تفتحوا لي الباب..
لا تعطوني الماء، ولا تشيروا إلى الطريق، ولا إلى النور..
فوجهي مطليٌّ بأيامي، وجبهتي جذعٌ من الخسائر والخيبات،
وأنفي نبت من التعالي والعناد، وفمي طافحٌ من الشتائم والصراخ،
وعيناي.. عيناي وجدتهما وأنا هاربٌ من الحسرات والكيد،

عيناي – ليلتها– كانتا صغيرتين ولمّاعتين، وملقاتين كالصدفة على الطين.

آه.. يا ليت قلبي لم يخلق بوجهي،
لكانت ملامحي راضيات قليلاً،
لكنت أملك بساطاً على الشاطئ..
وكذبة بحجم أعماركم».

أعادتها وأعادتها وفتحت الخامسة، السادسة، العاشرة، فتحت كل اللفائف العشرين، وكلها كانت أوراقاً مثنيةً عدة ثنيات، بداخلها مقاطع ونصوص وكتابات شديدة الحميمية، كانت الكلمات كأنها تسيل من مكانها في تلك الأوراق المكرمشة وتتسلل إلى أصابعها، وتمشي في كفيها فذراعيها، فإلى قلبها وسائر جسدها. لم تشعر قبل ذلك الصباح بما هو أعظم من ذلك الشعور الذي غشى كل خلية فيها. فكّرت في الغريب.. «لماذا لم يضع اسمه على أية لفافة، هل هو من كتبها!». عادت إلى الأوراق، ولم تدر كم من الوقت مضى وهي تقرأ كل لفافة مرتين أو ثلاثاً. لم تنتبه إلا عندما أوجعتها لسعة الشمس والظهيرة تقترب. كانت قد تربعت على الأرض. بكت مراراً ومراراً، وتأوهت ولم تكن لتأبه بشيء أو أحد لو لمحها في ذلك البيت المهجور.. لم تنتبه لذلك أصلاً، وعندما انتبهت كانت قد حسمت أمرها، وضحكت في نفسها ضحكة صغيرة بين تأثرها الفسيح جداً، ضحكت من نفسها أنها جاءت إلى هذا المكان لترتكب حماقةً وتحرق هذه الحياة الفاتنة، وتبسمت أكثر لأنها

أيقنت أنها ستصير منذ تلك اللحظة حارستها، حارسة لتلك الأسرار، حامية لجحر الغريب وأوراقه العجيبة.. شكرت الله وصلّت مراراً وأعادت كل شيء كما كان وبكل إتقان وحذر حتى لا ينتبه الغريب أن أحداً مسّ عالمه ذاك.. أو عرف عنه شيئاً.

* *

يوشك أن يكتمل يومها الثالث وهي في هذه الحالة العجيبة والمتناقضة، والأحداث الغريبة، واللفائف تجيء بذهنها وتروح، حتى إنه عاودها الهاجس مرةً أخرى أنه ربما يكون ما قرأته اليوم سحراً بالفعل وأنها قد وقعت فيه. لكن لم يصبها أي سوء ولم تأت الجن ولا الشياطين، بل على العكس أحست بأن روحها تكاد تطير من جنبيها بفعل الأحاسيس التي ملأت قلبها من تلك الليلة، وتلك الحياة العجيبة والحلوة التي اكتشفت بداية خيوطها. سخرت في داخلها من مسألة السحر برمتها، وتذكرت بابتسامة حلوة ذهابها للكنيسة وسؤال القس وخوفها وقلقها والوقود وأعواد الثقاب..

في الموعد نفسه، فجراً، انتظرت الغريب أن يأتي في التوقيت نفسه، كانت لفرط ما تحسّه قد اغتسلت ولبست أحب ملابسها إلى نفسها، كأنها تتهيأ للقاءٍ لا ينتمي لهذا العالم، لقيا حياتها بحياة شخصٍ لا تعرفه ولا يعرفها، ستلتقي بحياته دون أن تلتقيه هو، وبالفعل جاء.. وكعادتها في اليومين الماضيين راقبته، لكن هذه المرة بشعورٍ شديد الاختلاف، بفرح رهيب، بحبٍ مفاجئ. كادت صرخةٌ صغيرة أن تنطلق من فمها حين رأته مقبلاً من بعيد، لكنها كتمتها حتى لا ينتبه لأمرها أحدٌ من أهل البيت،

لم تعرف فرحاً بهذا الطعم من قبل، ولم تميّز إن كان فرحها بمجيئه هو أم بمجيء الأوراق التي سيخرجها من كمّه ويتركها لها دون علمه. راقبته بحماسة وأمل، وفعلت ما تفعله كل مرة، ورأته وهو يخرج أسراره من جيبه ويودعها في الجحر. مرّ بها قلقٌ خاطفٌ أن ينتبه الغريب إلى أن أحداً لمس جحره وأشياءه، لكن تصرفاته كلها حتى انصرافه كانت تدل على أنه لم يلحظ شيئاً.. ودونما انتظار، فبعد أن توارى الغريب نزلت بكل لهفها إلى البيت المهجور.. تحملها مشاعر وروحٍ قررت أن تسخّر نفسها لحراسة ذلك العالم الهائل في ذلك الجحر الصغير.

منام

مارس ١٩٧٥

(.. كان السقف واسعاً ومتماسكاً، وأبونا بلحيته وهيبته كان يمسكه بصلابة، وفجأةً يُفتح الباب، وتسري ظلمةٌ في الأرجاء كغيمةٍ حالكة، فيرتجّ السقف، وأبونا تظهر في رأسه ندبات ثلاث. لم يخَفْ، لكنه أغمض عينيه وسكت. نظرنا لبعضنا بقلق شديد، وآخرون لا نعرفهم، خارج البيت، سمعنا ما يشبه همساً مريباً فيما بينهم. كانوا يقهقهون ويشيرون إلينا).

٦

وجدت لفافة جديدة واحدةً فقط. رضيت بها وإن كانت قد طمحت لوقتٍ أطول كأمسها. جهّزت ماريا قلبها وفتحت الورقة.. وقرأت:

مجهدٌ أنا هذه الليلة دونما سبب واضح. فتحت دفتراً أكتب فيه ما يخطفني من هنا وهناك. وجدت عبارة كنت قد دونتها من كتاب إميل سيوران «المياه كلها بلون الغرق».. يقول: «إذا حزنت مرة دونما سبب، فقد كنت حزيناً كل حياتك دون أن تعلم!». كم هي مغرية وآسية هذه المقولة، وكم هي حقيقية أيضاً. تعبت أكثر وغرقت في مجهولٍ لا أواخر له. رأيت أناساً لا أعرفهم، أحاطت بي حكاياتهم وكأنهم خطفوني. كانوا أشباحاً شاحبة، نصف ملامحها مألوفة ووديعة، ونصفها الآخر لا أدري من أي ذاكرةٍ جاءت، كانوا يرغبون في الكلام بلا توقف.. وذهبت معهم في الغيب واحداً واحداً؛ شخصٌ يظنّ أن ليس معه أحد، ليس لأنه مغدور أو منفيّ أو بائس، بل لأنه وببساطة لا أحد هناك في ذاك الوقت، إما لأنها الظروف وشكل ترتيبها، أو لأنه كان سيئاً حيال الآخرين، أو حيال نفسه، وربما لأنه افتعل

حياته الوحيدة ليرى كم عيناً ستحدق به، وكم قلباً سيقطر حنانه عليه!

وشخصٌ آخر ليس وحدانياً، ولا وحيداً، ولا واحداً.. هذه ليست من صفاته، ولا يريدها أن تكون كذلك، لأنها صفاتٌ مفرطةٌ في الكذب والبحث عن تعاطف ورحمة، وهو في حقيقة كراهيته لهذه الصفات يعيش خالياً من الناس!

وفي صدفة الأشباح والغيب تلك.. وعلى مقعدين في طائرة، وكل الأفكار والهواجس معلقةٌ في السماء، وبعد كلام لا معنى له، يتساءل هذان الشخصان، اللذان لم يلتقيا قبل تلك اللحظة، وربما لن يلتقيا بعدها:

— هل شعرت يوماً بالوحدة؟

— أحياناً..

— هل تحب هذا الشعور؟

— أرجو أن لا يزعجك لو أخبرتك بأن كلمة «وُحْدة» كلمةٌ كاذبة ومملة، ولم أجد أحداً لا يقولها، ولا يجعلها صفته أو شكل حياته، بالرغم من أن كل الذين يقولونها يعانون من شرهٍ عاطفي مليء بشراهة التملك وحيازة الآخرين والسطوة على مصائرهم، وأنا بالطبع لست ملاكاً، فقد قلتها، وأحببتها يوماً ما، وخدعت بها نفسي وكثيرين، لكنني سئمت ذلك الافتعال الساذج، لذا فالناس حين يسهرون معاً، أو يجلسون في غرفةٍ مشتركة، أو حتى يذهبون إلى الرحلات الجماعية، لن أخاتلهم وأهرب لزاويةٍ أو مخبأ.. إن هذا التصرف مقرفٌ ومليء بالدرامية والمراهقة، وفيه بحثٌ مبتذلٌ عن حكايةٍ لا معنى لها، وتفتيشٌ

مهترئٌ عن سؤالٍ من نوع «أين اختفى فلان؟!».. لكنني سأبقى بينهم، وسأثير المشاجرات والضحك، والنشوة أحياناً، وفي اللحظة التي أحتاج أن تكون لي وحدي سأركز جبهتي على كفي، نعم.. بينهم سأركز جبهتي على كفّي، وأطبق جفنيّ وأسكت!

— أيعقل أن أحداً في الدنيا لا يريد أن يجلس بعيداً عن المخلوقات، على كثيب، أو في مغارة، أو خلف جدار، أو على حافة نهر، أو بحر، أو في رأس جبل؟!

— بالطبع هناك مَن.. لكن المغارات، والجدران، والأنهار، والصحراء، والبحر، والجبال تعرف أهلها، وتعرف اللغة التي تناديهم بها، إنها تشدهم إليها في الأصل ليأتوها فتخلصهم من الوحدة، من الإحساس بالفزع الوجودي، والظلم!

— وماذا سيبقى؟

— تبقى الأشياء التي تحمل سرّها ويقينها في داخلها.. إنها لا تذبل، وتبدو دوماً كأنها خُلقت صباح اليوم، الأشياء المشعّة، تلك التي لا تحيطها الكلمات، ولا تستطيع اللغة حتى أن تصوغها، لكنها تضيء في الذهن، وتلمع في العينين.

.. وقع ما في يدي على الأرض، وصحوت من أشباحي!

«لم أعد وحيدة بعد هذه الحفرة»، قالتها ماريا وهي تعيد الورقة كما كانت، وتعيد كل شيء على حالته وتقوم راجعةً إلى بيتها.

**

مرّ يوم ويومان وثلاثة، والغريب لا يرجع وليس هناك من

لفائف جديدة. فهمت أنه ربما سافر، لكنها أيقنت أنه سيعود يوماً ما إلى حفرته وأسراره.. كل ما يلزمها هو أن تحرس تلك اللفائف، وأن ترجع إليها من حين إلى حين لتقرأها وتتأملها..

تذكرت أشياء كثيرة مرت بحياتها، وأصدقاء فقدتهم، وقصصاً من الحب كانت على أطرافها ثم ذهبت وتلاشت، وتخيلت ملامح أقاربها الذين أكلهم رصاص الحرب، وفكرت في نفسها بأن الموتى والغرباء، الذين نحبهم وهم في الغياب، لا يذهبون، كأنما لا تختفي سوى أجسادهم، وكأنهم بطرقٍ خفيّة ومجهولة يأتون من الغيب، ويعيدون نسج ملامحهم، وأصواتهم، وكلماتهم.. فنراهم حيناً في وجهٍ لا نعرفه، أو نراهم حيناً في مكانٍ كانوا يجلسون فيه، أو نسمع أصواتهم في عبارةٍ قيلت صدفةً، وهم كانوا يرددونها، وكأننا، نحن من بقينا بعدهم للفقد والانتظار، نشعر بمثل اليقين أن أولئك الموتى لم يغادرونا بعد، وأنهم ما زالوا بيننا!

وفي إحدى الليالي خطر ببالها ذلك المنتدى بالانترنت، وتذكرت الذي يكتب مناماته، وتعجبت كيف نسيته كل هذا الوقت. قالت في نفسها إن هذا هو ما سيثير مشاعرها الليلة من جديد، وتوسلت اللّه أن يكون قد كتب كثيراً في غيابها. هجمت على الانترنت بلهفة وسرعة، وفتحت الصفحة..

**

في عالمٍ ثالثٍ هناك في المجهول.. كان صاحب المنامات يريد أن يتخلّص من عبءٍ ما لا يعرفه، في نفسه. فكّر أنه بحاجة للكلام، ولأنه لا أحد بحوزته ليتحدث إليه، فقد اختار صفحة

مناماته ليرمي عليها قليلاً من القلق الهائل الذي يتخبط فيه، وكان يشعر وهو يعود إلى الصفحة بضياع فظيع، وفي نفسه أسئلةٌ متوحشة.. كلّ واحدٍ منها يطلب منه أن يبرر وجوده على هذا الكوكب، ولأنه كلما برقت في ذهنه إجابة في اتجاهٍ ما، نسفها شعوره بالهباء، وقضمتها أسئلته من جديد.. وبهذه الحال المضطربة راح يكتب:

(قضيت الأيام الماضية في حالٍ رديئةٍ جداً، وغالباً ما كنت أذهب للجلوس في بهو فندق، من تلك التي تجعل من الموسيقى خلفية رقيقة للشهوات التي تحفّ القهوة، وشيئاً من لهاث العابرين.. وفي الأيام الماضية كثيراً ما جلست في مقهى على البحر، وهي حالة غريبة ونادرة، لأنني بالعادة ألزم البيت في لحظات كهذه، منزوياً عن كل شيء إلا خصام نفسي، وحين يرهقني هذا السوط في داخلي أهرب لمتابعة أفلام عظيمة وغبية وحلوة وحقيرة.. إلخ.

حسناً.. إنني أكتب مناماتي، وأتمنى لو أني أحلم بشيء ليس لأحد؛ أعني لا أحد يظهر فيه.. أعني بشكل أوضح أن أحلم بي، أن أرى الغياهب الشاسعة التي في جوفي، فربما يستريح هذا الجمر الذي تنطوي عليه نفسي قليلاً! أريد الآن أن أكتب كثيراً.. كثيراً، أعلن عن رغباتي بشكل ساذج، ثم لا بأس لو قمعتها بطريقة غير مفهومة، لن أكمل! لا، سأكمل.. أذكر أنه دعاني مرةً شخص لمتابعة إحدى مباريات المنتخب في زمنٍ مضى، وكنت أدخن نوعين من السجائر البيضاء.. وبالعادة

لا أذهب لمجالس مزدحمة بأشخاص غير معروفين، لكنني فعلت وذهبت، وجلست في الجهة اليسار، وأيضاً كان إلى يساري شخص لطيف جداً، لأول مرة ألتقيه، أو لنقل إنه بذل جهداً شاقاً أن يكون لطيفاً، وخصوصاً أنني شعرت أن هناك مقدمة ما، وسرداً لحكايا خلعها عليّ صاحب البيت قبل أن آتي ليحشرهم بالحماس تجاهي، هكذا شعرت ليلتها. ومن طريقتهم في النظر إليّ تخيلت أنه كان يصفني بأمور كلها مسخرة، من نوع الجرأة والعفرتة، ووصفي بالغرابات والحالات النفسية.. إلخ من النهم الذي يهرش ألسنة الناس حين يكذبون.. فيكذبون أكثر!

المهم أني، وتقريباً عند السيجارة الرابعة ومع اختناق الغرفة بالدخان، لمحت هذا الشخص ليساري يحرك يده ليبعد الدخان عن وجهه بتصرف لاشعوري.. فكرت قليلاً، لدقيقتين تقريباً، ثم قمت ورميت علبتي السجائر والقداحة التي أتيت بهما في سلة النفايات بطرف الغرفة، وحين استدرت ورأيتهم جميعاً قد سكتوا وكأنهم ينتظرون مبرراً لتصرفي، فقلت فوراً: «تركته».. ضحكوا وضحكت، لكنني بالفعل لم أدخن السجائر من تلك اللحظة، وبقيت أدخن السيجار أو الغليون أحياناً.. وهذا ليس كثيراً بالعموم، حتى إني حين أسافر للخارج، وأنا أسافر بالمناسبة مرة أو مرتين في الشهر تقريباً، يحدث أن تمرّ بي أوقات كآبة من نوع خاص فأحاربها بطريقة سخيفة؛ مثل أن أذهب إلى أقصاها، إلى أقصى ما يستطيعه الحزن والاستيحاش والأرق، وهذا ليس خطيراً.. يمكنني أن أغيّر كل شيء في دقيقتين. نعم يمكنني أن

أكون شخصاً آخر في دقيقتين، المهم أن يصحو قلبي في اللحظة المناسبة.

أما جلوسي في مقهى على البحر فهو مع شديد الأسف.. البحر الأحمر، وليس البحر الأبيض المتوسط، وشواطئه ليست شواطئ إيطاليا.. والفنادق المطلّة عليه ليست فنادق فينيسيا وميلانو، ليست شواطئ فرنسا ولا أسبانيا، ولا حتى قبرص أو بيروت! وبما أني قلت إيطاليا.. فأتذكر أنها، وعند نافورة تريفي، حدثت حكايا صغيرة، لكنها كانت ذات طعم خاص جداً، مثلاً لحظة وصولي إليها اقتربت منها حتى الحاجز الأرضي، حيث يمكن لمس الماء، ووقفت أحاول تصوير نفسي بنفسي، أمد يدي بالكاميرا أمام وجهي وأحاول أن تظهر التماثيل من خلفي، لكنني فوجئت بفتاة تكلمني بالإيطالية، ولم أعرف كلمة واحدة لكنه كان واضحاً أنها تقول «أنا أستطيع تصويرك».. لم أجبها وابتسمت وأعطيتها الكاميرا، وحين انتهت شكرتها بالإنكليزية، وبدا واضحاً عليها أنها صُدمت لأنني لست إيطالياً، وهذا شيء كان محرجاً نسبياً. بالطبع كان محرجاً لأنه يشبه أن يكون شخصٌ ما على حافة، يعتقد كل طرف من الجانبين أن هذا الشخص ينتمي إليه، وحين لا يحصل على ذلك فإنه لا يتردد فوراً أن يبدي خيبة أمله، لذا سأقترح على أمثالي أن لا يقف أيّ أحدٍ منهم على الحوافّ، وإذا وقف مرة عليها فإن أول ما يلزمه أن يفعل هو أن يشيح بوجهه عن الجهتين، أن لا ينتمي لأيّ منهما، وأن يؤمن بحافته الشخصية فقط، أن يؤمن بهوّته الخاصة!

ومرة، وأنا أقف قريباً جداً ليمين النبع، جاءت فتاة سحرية،

تلبس فانيلة برتقالية داكنة بكمين طويلين وبنطلوناً بلون الثلج، وأدارت ظهرها للماء وأغمضت عينيها ورددت أمنياتها ثم قذفت بقطعة معدنية من وراء رأسها.. كنت أراقب كل هذا، ولم أفكر حتى بالحرج الذي يمكن أن أتعرض له لو قالت لي «ماذا تريد؟» عندما انتهت ابتسمت لها وسألتها بالإنكليزية طبعاً: «لِمَ تفعلين هذا؟» فبادلتني بابتسامة مليئة بالحياة والرضا، وكأنها تنتظر أن يسألها أحدٌ ما هذا السؤال منذ خُلقتْ، لكنها لم تجب، بل حرّكت كتفيها للأعلى وأمالت رأسها لليمين وانصرفت بربع تحية.. هذا لن أنساه. بالإمكان أن أنسى ذبح مائة رجل، دون أن أنسى إيمان تلك الفتاة بأمنيتها، وتصرفها، وطريقة ذهابها).

منام

نوفمبر ١٩٧٩

(عميانٌ ملتحون بثيابٍ رثّة، يحملون نعوشاً تفوح من أطرافها رائحة البارود، أحاطوا بالكعبة من جميع جهاتها، والكعبة تنفر منهم وتنحسر أستارها، وتلوذ بأذان الفجر. قام رجل ممسوس بشعرٍ كثّ وجسدٍ نحيل يوصد أبواباً عالية، ويأخذ كفوف المصلين ويدسها في جيب رجلٍ يمشي في نومه، وفجأةً صار الحمام دخاناً وأصواتاً خاطفةً تخرق أجساد رجالٍ يهبطون من السماء. والأرض من حول الكعبة صارت غازاً ومياهاً مشحونة. وأقبلت ديوكٌ طيورٌ بأجنحةٍ زرق وحمر، وراحت تنقر النعوش، وتأكل من خبزٍ كان الملتحون يحملونه فوق رؤوسهم. تفتّحت الأبواب العالية، ولم يستيقظ الرجل الذي يمشي في نومه أبداً. وذو الشعر الكث سكت، كانت عنقه مع أعناق الملتحين في قبضةٍ واحدة، وكانت أعناقاً قصيرةً ليس لها جسد).

٧

رجعت ماريا لصفحة النائم..

(مايو ٢٠٠٦

رأيت البارحة أني أحزم أمتعة، وكأنني سأخرج من بيت لن أرجع إليه للأبد. بعد أن عقدت كل شيء، أشعلت حريقاً كبيراً، وملأته بالأوراق والمناديل، وبقيت أنظر إليه.. والجوّ كان شديد البرودة. وبعد أن انتهيت جلست على مقعد كأنني قد تعودت عليه، وكنت مذعوراً وحزيناً. فعلت كل هذا دون أن أقول ولو كلمة واحدة.. وكأنني كنت في منامي نفسه أفكر في قيمة الكلام، وبينما أنا جالس وقفت أمامي مرايا من كل الجهات، ورأيت صورتي فيها. كنت في المرايا صلباً ولا يظهر عليّ أي خوف، وعندما نهضت اختفت المرايا. خرجت دون أن أغلق الباب، وعندما وقفت بالشارع وجدت سيارةً كبيرة، وعليها أمتعتي.. أخذتها ومضيت!

(يونيو ٢٠٠٦

رأيت بمنامي أمس شيئاً عجيباً.. رأيت رجلين أبيضين، لا أعرفهما من قبل، كنت معهما في بهو فندق، وكانا حميمين

ومهتمين بي جداً. الأول قال لي بالحرف «لقد اتصلت بالمرأة المسؤولة، ورتبت كل شيء، سيكون الموعد نهاية الأسبوع». سألته «أي موعد وأي امرأة؟» وقبل أن يجيب قاطعنا الرجل الثاني موجهاً الكلام لي، ممسكاً بيدي، وهو يحلف «والله إنه صادق».. لم أقل شيئاً، وأعدت نظري إلى الرجل الأول لأعيد عليه السؤال، لكنه كان يتحدث بالهاتف، كان مائلاً بجسمه للوراء على الكنبة، ممسكاً هاتفه بيده اليمين، ويسرح شعره بيده اليسار.. لم أسمع من مكالمته تلك غير كلمة «هو موافق»، وكان يقصدني!

(يوليو ٢٠٠٦

الليلة الفائتة رأيت أني كنت منحنياً على كتاب، وبيدي قلم وأكتب فيه، ولا أتذكر مما كتبت شيئاً، أذكر فقط أن شكل الكتابة كان قصيراً، وكان لون الحبر أزرق.. وفي لحظة منقطعة عما قبلها رأيت أنني أنظر إلى صفحة كبيرة، وفيها صورتي بالوضع الذي كنت عليه أول الحلم.. كانت صورتي هي نفسها، وأنا بالمظهر ذاته، منحنياً على كتاب، وبيدي قلم وأكتب فيه).

صُعقتْ وهي ترى الصفحة، وقبل أن تقرأ أي شيء، فاجأتها الكتابة الطويلة التي كتبها صاحب المنامات، والمنامات الثلاثة التي أضافها، بينما كانت هي في فراشها.. «كيف! كيف!» نطقتها وهي تشعر بأنه خدعها وكتب كل هذا وهي غائبة، ثم سكتت للحظة وضحكت من نفسها على هذا الشعور، وقالت في

داخلها «لماذا ألوم شخصاً لا أعرفه، ولا يعرف هو حتى أنني أقرأه!»، لكنها رغماً عن هذه الضحكة كانت تتعامل مع تلك المنامات وتلك الصفحة، وكأنها لم تكتب إلا لها. كانت عندما ترى تعليقاً من المتابعين الآخرين تشعر بالقرف منهم، ومن كلماتهم، وبودها لو قالت لهم إنهم متطفلون عندما يقرأون شيئاً لا يخصهم! قرأت كلامه عن نفسه، وطريقته في التخلص من سأمته، وقلقتْ دون مبرر من طريقة حياته، لكنها أيضاً أحبت ذهابه للبحر وجلوسه بالمقاهي والفنادق، وتخيلت كيف ستكون موسيقاه، ولم تستغرب كلامه على الانزواء بالبيت، ولا خصامه لنفسه، وانهماكه في متابعة الأفلام.. كان هذا لائقاً بإيحاء طريقته في التعبير والكتابة.

(حسناً.. إنني أكتب مناماتي، وأتمنى لو أني أحلم بشيء ليس لأحد؛ أعني لا أحد يظهر فيه.. أعني بشكل أوضح أن أحلم بي، أن أرى الغياهب الشاسعة التي في جوفي، فربما يستريح هذا الجمر الذي تنطوي عليه نفسي قليلاً! أريد الآن أن أكتب كثيراً.. كثيراً، فأنا أعلن عن رغباتي بشكل ساذج، ثم أقمعها بطريقة مركبة، لذا لن أكمل!).. أعادت قراءة هذا المقطع بالذات، ولم تدرِ لماذا أحست بالرهبة.. «يا ألله» قالتها، وهي تحاول أن تتخيل مدى تعاسة هذا الإنسان الغارق في جحيمه الداخلي. لقد مرّ بها إحساس عميق بالشفقة عليه، وبالفضول والرغبة في معرفة كل شيء عنه! أكملتْ القراءة وفتنتها حكاياته، وكيف أقلع عن التدخين، وطريقته اللامبالية بالناس من حوله، وفتنتها أكثر قصصه الصغيرة في إيطاليا، وتمنّت أنها رأت ما رآه،

وبشهوة أكبر تمنت لو كانت إحدى الفتاتين اللتين تحدث عنهما عند النافورة، وبالأخص تلك التي قال عنها «حركت كتفيها للأعلى، وأمالت رأسها لليمين، وانصرفت بربع تحية..» تمتمت «هذا ما لن أنساه. بالإمكان أن أنسى ذبح مائة رجل، دون أن أنسى إيمان تلك الفتاة بأمنيتها، وتصرفها، وطريقة ذهابها!» وغمرتها نشوة حلوة، شتمته في داخلها، وهي تقول بحنق «كيف يكتب هذا المجنون!».. ثم فكرت قليلاً في أوراق الغريب وحُفْرته، لا تعرف لماذا أحسّت بأن شبهاً ما لا تفهمه بين تلك الأوراق الحزينة الحميمية، وبين كلمات هذا النائم الغاضبة!

أعادت القراءة مرة أخرى، وفي ورقة خارجية أخذت تحاول أن تكوّن له شخصية في خيالها. كتبت (وحيد – يدخن ولا يدخن – يؤذي نفسه – إرادته قوية جداً – لا مبال – شرس بمعنى أدق – حياته مليئة بالقصص الخاصة التي يعيشها بمتعة فردانية – لا يحب المكان الذي يعيش فيه – شخص غير سوي نوعاً ما..) ، ثم حاولت أن تتخيل ملامحه وفق الصفات التي دونتها، لكنها لم تستطع. لم يكن لديها أيُّ ميل لأي شكل يخطر ببالها، باستثناء إحساسها بأنه ذو جسدٍ نحيل فقط. رجعت للقراءة، وتهيأت وكأنها تبدأ من جديد لقراءة المنامات الثلاثة، التي أضافها، وحشدت قواها وتركيزها، وكأنها ستدخل في تحدّ مع كل البشر لفهم لغز ما. في منامه الأول يحزم أمتعة، ويحرق أوراقاً في جوّ شديد البرودة، في منامه الأول خوف وسؤال عن قيمة الكلام، ثم صورته في مرايا تحيط به، وأخيراً ذهابه.. فكرتْ في معنى منامه هذا، ومن قلبها أدركت أنها فهمت أنه إما

غادر مكاناً، أو أن شيئاً في حياته انتهى نهايةً مؤسفة وصامتة.. وفي منامه الثاني الرجلين الأبيضين والموعد مع المرأة، ووقفت أمام هذا المنام بحيرة، ولم تستطع أن تفهم شيئاً. خمنت فقط أنه ربما كان ينتظر حدوث شيء في أيامه القريبة القادمة. في المنام الثالث قرأت كيف أن الحال التي كان عليها في الحلم وهو يمسك بقلم ويكتب في كتاب أصبحت بشكل مفاجئ صورة في صفحة بيضاء، وحدَّثتْ نفسها بأن هذا الرجل ربما كان – على الأقل – شاعراً، لكنها صرفت هذا التأويل من ذهنها، لأنها لا تحب الشعراء وتخاف منهم.

انصرفتْ عن الصفحة، وهي مغموسة بكامل نشوتها فيها، وقررت أن تبدأ في كتابة رسالة له، لكنها على الفور حدثت نفسها بأنه ربما ليس هنالك أية جدوى من مراسلة مخلوقٍ كهذا، أو التعليق عليه، لكن الأمر بحد ذاته مدهش ولذيذ، ولا بأس لو قامت بمحاولة، فربما يجيب عليها، ثم تأتي رسالة وأخرى وهكذا.. وتنتهي القصة كما هي دوماً إلى صداقة! فعقدت في نفسها النية أن تكتب له رسالة، ولاح برأسها اسم لرسالتها، قد يغريه.. ستسميها «نائمة أخرى». وحتى لو كان في نيتها اكتشافه أو الاقتراب منه ومن عالمه يوماً ما فإنها حزمت أمرها أن تكتب إليه كتابةً صادقةً خاليةً من مراوغات الذين يتبادلون الرسائل في الانترنت، ستكتب حاجتها إلى كلماته والسلام. هذا سيعالج إحساساً بالقلق؛ أنها تحيك في داخلها شيئاً، كان إيمانها أنها عندما تصْدُق فإنه سيجيبها فوراً، وهكذا ستختصر على نفسها وكبريائها عناء البحث عنه أو ملاحقته.. لكن ماذا لو لم يجب؟!

لم تتوقف عند هذا التساؤل طويلاً، وقالت لنفسها إنها حيلة خالصة الودّ، فإن جاءت به وإلا فإنها ستقبل بنصيبها الغيبي هذا منه. ومع أن شيئاً من الخوف يدفعها لليقين بأنه يستحيل أن يخرج هذا الإنسان من مناماته وعالمه، وأنه لن يراه إلا من يستطيع أن يدخل إلى حلمه، وأن كل محاولة لسحبه إلى حياة الناس والشمس والأشياء محاولةٌ لإيذائه، إلا أنها ستكتب.. وترسل!

منام

يونيو ١٩٨٢

(رأيت مصلّياً في قصرٍ أبيض. قبل الفجر كانت السماء فوقه مفتوحة، وكنت أعجب كيف يمكن أن يعيش في هذا المكان الواسع وهو بلا غطاء. كان طاعناً في السنّ، يلبس رداءً أبيض، وكأني أرى نبضات قلبه وهي ضعيفة ومتألمة. التفت إليّ ففرحت وخفت، وقال ببسمة وضيئة «هل ترى بيتي مفتوحاً من أعلاه؟ لم يحدث هذا من قبل. حدث الليلة فقط، وصباحاً سأعبر من هذه الكوّة في السماء». لم أفهم، واختفى وصرت أرى القصر من خارجه وحيداً والليل يأخذ منه أشياء لا أعرفها. فجأة رأيت أني في بيتنا في القرية ودخلت إحدى الغرف فوجدت والدي ينظر إلى التلفزيون ويرى الرجل المسن الذي كان يصلي في قصره والناس يحملونه ويبكون.. وأبي يبكي).

٨

رسالة ماريا إلى صاحب المنامات:

(عزيزي النائم، لقد اهتديت إليك صدفة. هذا ما حدث. أنا لا أعرفك أبداً، وأكذب لو قلت إني لا أرغب في معرفتك، لكني أدرك أن هذا ليس ممكناً، وأنت طبعاً لا تعرفني.. أعتقد أننا نعرف بعضنا في عالم غير مفهوم، ليس عالم الواقع. والآن أكتب إليك رسالة، ومع أنني قد لا أرسلها لك، إلا أني بحاجة للكتابة إليك، بمعنى أوضح إنني أقرأك بانجذابٍ عجيب، وسأخبرك بأني في انقطاع من مدة عن رجلٍ غريب أنتظره ليأتيني بلفائف وحكايا جديدة، ولم يأت بعد،ووجدت نفسي لا اقرأ الآن إلا مناماتك، ولعلمك أنني فكرت في كتابة مناماتي كثيراً، ولا تغضب، فعندما رأيت صفحتك هذه أحسست أنني أولى بهذه الفكرة منك بداية الأمر، ثم ذهب هذا الشعور، وبدأت أرى أنك تكتب ما أحتاجه، حتى وإن كنت لا أفهمه، وأظن أن هذا هو السبب الذي يدفعني لكتابة هذه الرسالة اليائسة إليك، وها أنا كما ترى أكتب تحت وطأة أسلوبك. لا يهم!

بِمَ أحدِّثك عن نفسي؟ في فجر شتائي، من ليلة الخامس

عشر من ديسمبر الحزين.. ولدت. مناماتك تدل على أنك أكبر مني فهل رأيت رضيعةً في منامك ليلتها؟ هل حدثتها بشيء؟ إن كان ذلك قد حدث، فحتماً كنت أنا تلك الرضيعة التي رأيتها. لا أحد يعرفني مثلك.. مرآتي وحدها تدرك تاريخ طفولتي الذي فقدت بعضه عندما هجر الطابور الصباحي مشيتي وأنا ألهو يميناً ويساراً كسنبلة قروية تتمايل مع أي ريح.. يا ألله كم أنا مشتاقة لـ«مريولي» المدرسي، وضفائري وربطاتها البيضاء القصيرة. كنت أدس فيها النجوم التي أعدها، وأحلام رحيلٍ بعيد! أنا امرأة كانت تظنّ أن قدرها خالٍ من الآخرين، لكنني ومنذ فترة بسيطة اكتشفت أنني أملك شركاء في هذا الوجود، اكتشفت هذا بداخل حفرة صغيرة في بيت مهجور. ويصعب عليّ أن أشرح هذا لك لكنها الحقيقة. أيضاً أنا مثلك أتابع الأفلام عندما أشعر بالضيق، ضيق البيت وضيق القدر والعالم. يحدث هذا حين تبلغ بي الكآبة حدود العجز حتى من الحديث مع نفسي. يا نائم، أكبر مشكلاتي هي نفسي، ولا أظن أني قادرة على حلها، وأظن أني أكتب لك للبحث عندك عن حلّ.. هكذا أظن! العمر بين أصابعي يتسرب كالرمل. كل عام أضيع أكثر، وبعض الأحيان أدخل في حالة من عدم الاهتمام. لم يبق لديَّ سوى أني أترقب حدوث شيءٍ ما فقط!

يا نائم.. أنا مؤمنة جداً بتواصل الأرواح، لقد أعجبتني مناماتك، وطريقتك في سردها، ولن أحدثك عن مناماتي حتى لا أشوّش على صفائك، لكن ثق بأنني أرى منامات أيضاً، وأكثر ما أرى أني أطير.. ولا هاجس لديَّ هذه الأيام سوى أن أطير.

أتمنى لو أتجزأ وأصير سرباً من طيور مهاجرة، لا تتوقف عن رحيلها إلا لحظاتٍ تحت دفء شمس الصباح.

اليوم أمطرت الدنيا. صحوت على نقرات المطر في الشبّاك، فخرجت إليه فوراً. مشيت تحته. فتحت ذراعيَّ له، وكانت قطراتٌ منه تقع على شفتيَّ.. وبصدق تمنيت أن يظهر الرجل الغريب الذي لم أحدثك عنه بعد، الغريب الذي أهداني أجمل حفرة في العالم. كنت وأنا أمشي تحت المطر أحس بأني أغرق في محيطٍ حلو. كانَ الماء يقطر من أطراف شعري القصير، ومن طرف أنفي. دائماً تقول أمي لا تقفي في المطر حتى لا تخطفك الصاعقة، وعندما كنت طفلة كنت أقف عامدةً لأرى إن كانت الصاعقة ستخطفني أم لا، وطوال سنيني هذه، لم تأخذني أية سحابة ولا صاعقة! على أية حال، هذه أنا يا نائم، ولا تقلق. لن أتحدث عن نفسي كثيراً.. كنت أحاول أن أعرفك بنفسي فقط).

انتهت ماريا من كتابتها، وعلى صفحة بريد النائم تأكدت من العنوان «نائمة أخرى»، قرأت الرسالة مرة أخرى لتراجع أخطاءها، وأعجبها كثيراً ما كتبته، وأحست أن أسلوب كتابتها بالفعل كان تحت تأثير ذلك النائم المجنون حتى ولو كانت قد تحدثت عن نفسها بانطلاق لم تتوقعه. كانت قد فكرت أنها لن ترسلها، ستكتبها فقط، لكنها أخيراً نظرت في الشاشة بعمق، حركت إصبعها بسرعة وكبست على أيقونة الإرسال!

ماذا حدث؟ انتظرت ماريا يوماً وأياماً، ولم يصل من النائم

أي رد على رسالتها، ولا أية إضافة على مناماته.. انتظرت وانتظرت ودخلت الانترنت كل يوم مراراً.. وأخيراً وفي واحدة من الليالي، لم تجد كالعادة جواباً على رسالتها، ولكنها أيضاً لم تجد المنامات في الصفحة نفسها. شهقت وراحت تبحث عن الموضوع بكل وسائل البحث، لكنها لم تجد شيئاً، ولا أي شيء، ولا كلمة واحدة. «حذفها» قالتها وهي تكاد تبكي، وحملقت بعينيها بألم رهيب، كانت على يقين بأنها هي المسؤولة، أنها هي من أفزعته بنيّتها وبرسالتها تلك. بحثت عن اسمه لتكتب له رسالة اعتذار، لتتوسله أن يعيد المنامات للصفحة، لكنها فوجئت بأن اسم ذلك النائم لم يعد هناك أبداً، لقد حذف كل شيء حتى اسمه. كانت توشك أن تدخل يديها في الشاشة لتفتش عما تظن أنها كانت وراء ضياعه، بحثت طويلاً؛ ولما أعياها التعب قامت وهي تزفر بخيبة، وتمسح فتحتي أنفها بظهر سبابتها.. وتقول بصوت واضح «تعيسة أنا حتى في الخيال».

منام

يوليو ١٩٨٤

(أحد عشر نحيلاً يركضون على عشب ناعم بلا توقف. عليهم أوشحة خضْر، تاسعهم أسمر بساقين مقوستين، رفع يده اليمنى عالياً ثلاث عشرة مرة، رأيت في عينيه خارطةً شاسعة، وبيوتاً من الطين، وأعشاشاً بحجم القبضة. كانت الهتافات تعلو أكثر فأكثر كلما مدّ يده للسماء، وكنت أقفز، واثنان من إخواني يقفزان معي، وفي لحظة صرت أتكلم مع هذا الأسمر، كبر قليلاً، لكنه هو نفسه.. لم يعد نحيلاً. كنا جالسين بجوار البحر، ويحكي لي كيف رفع يده ثلاث عشرة مرة).

٩

يكاد الشهر ينقضي وماريا على تلك الحال، بين انتظار الغريب وبين القهر الذي لم تنسه على النائم وكتابته التي لم تحتفظ ولو بنسخة منها. حاصرها اليأس من كل ناحية.. تصحو يومياً كعادتها في التوقيت نفسه لتزيح الستارة عن الشباك وتنتظر لعشر دقائق، حتى إذا لم يظهر الرجل الغريب عرفت أنه لم يعد بعد، فترجع إلى فراشها.. لكنها ذلك الفجر ما كادت تزيح الستارة حتى رأت ذلك القادم من بعيد. فتحت الشباك.. وقليلاً تبيّنته وهي تهمس «هو.. هو!» أمسكت نفسها، وراقبته مثلما فعلت منذ أول مرة. وفعل ما كان يفعله دوماً بالضبط، لكنه هذه المرة أطال أكثر، فأحست بالخوف أن يكون قد لاحظ شيئاً يدل على أن أحداً يفتح لفائفه ويترصد أسراره في غيابه. خافت أن يكون قد تسرب إلى نفسه الشك أن أحداً ما قد اكتشف حفرة عالمه الصغيرة.

بعد أن انصرف الغريب، وبالرغم من كونها قد تابعته بعينيها حتى اختفى خلف البنايات إلا أنها ترددت في الذهاب. فكرت في نفسها أن هذا الرجل لو كان قد شكّ في شيء ما، فإنه ربما

يعود في أي لحظة بدافع شكّه أو لأي سبب. فكرت؛ ربما يراها فتخسر الحكاية كلها، وأخيراً لم تذهب.

بقيت ماريا مشغولة جداً وذهنها ونفسها معلقة بتلك الحفرة وأسرارها الجديدة حتى فجر اليوم التالي، والله وحده يعلم أي يوم من الانتظار مرّ بها، حتى إنها لم تفعل أي شيءٍ يذكر، غير أن تطوف بالبيت وبغرفتها كالملدوغ.. وحين حانت الساعة، وعندما ظهر الغريب مرةً أخرى وحدث كل شيء بالطريقة نفسها التي يحدث بها دوماً، من مجيئه حتى ذهابه، لم يكد يختفي أثره حتى نزلت ماريا ركضاً إلى الحفرة. فوجئت أنه قد ركز على الحفرة لوحاً صغيراً يشبه شواهد القبور، كتب فيه كلمةً واحدةً فقط هي «شاليه».. لكنها من شدة عجلتها ولهفها لم تفكر فيما فعل ولا في الشاهد ولا في الكلمة طويلاً، بل عمدت إلى الحفرة ففتحتها وفهمت لماذا تأخر الرجل الغريب في المرة الماضية دون أن تفكر فيما هو أبعد من ذلك. لم تجد اللفائف أول الأمر، وإنما وجدت قميصاً أبيض محشواً بشيء ما. حملت القميص وفتحته بهدوء فوجدت اللفائف بداخله. فرحت كثيراً وتساءلت لماذا يجمعها في قميصه هذا بالذات. قرّبته من أنفها واستنشقته لتميز رائحته. لم تكن هناك رائحة لأي عطر، وإنما كانت رائحة جسد تملأ القميص.. شمّته ماريا طويلاً بغريزةٍ صريحة، «هل هي رائحة جسده؟».. هكذا تساءلت بداخلها. كان ذلك الغريب يثير فضولها ونفسها وعاطفتها، لكنه في ذاك اليوم أثار حتى غريزتها لدرجة أنها كادت تنسى تفتيش اللفائف الجديدة. بعد حين مدت يدها داخل القميص وأخرجت كل

اللفائف، حتى وصلت إلى أول لفافة جديدة لم تكن قد قرأتها من قبل..

قرأت:

كنتُ ولداً صغيراً.. لكن بهلوساتٍ كبيرة. وهذا الولد، الذي كنتُه، ساخن الطبيعة، كثير الانزواء، لكنّه يفعل ما يرغب، ولا يأبه لما سيكون عليه الآخرون حياله.

ولكنّه أيضاً، كلما كبر، سيفعل ما لا يرغب في أحيان أخرى، ولا يأبه لما سيكون عليه حيال نفسه، وحين لا يأبه لما سيكون عليه حيال نفسه، سيدرك أن شيئاً مسموماً يتكدس في داخله، فلا هو يتقيأه، لأنه يعتبر التقيؤ عاراً، ولا هو ينسى. طبعاً لا ينسى، إنه يشدّ على رأسه لحاف صمته القاتم فحسب.

ولكنّه كذلك حين يكبر أكثر سيعرف أن ذكرياته المحقونة بالعناد، والإفراط في تحريق جوفه.. أقل مما يؤهله لانهيارٍ شجاع وسريع!

ولكنه أيضاً حين يرى أن الانهيار أجبن من الرغبة، سيسخر من حياته التي تشبه الكوابيس والهلوسات، وحين يصحو لحظةً سيتذمر كثيراً، ويسأل «لماذا لا تحدث الأشياء إلا في النوم؟».

هذا الولد الذي كنتُه.. يخجل جداً، لكنه أدرك أنه إذا لم يكسر قفل الباب ربما توتّر وخاب تماسكه، ولكنه مع ذلك — حين يتفتت القفل — يجلس بين أشلائه ويقول شعراً طفولياً كثيراً في نعيه والحنين إليه، ثم يجمع أجزاءه من جديد، ويحلم لو أن

القفل ذاته يعود ويعمل، ولا يتذكر شيئاً عن المقت والغضب والأغلال..

وهذا الولد الصغير يكسب أحياناً، لكنه أيضاً يحب الخسارات، ويحلف بالله أنه لم يكن قوياً ذات يوم إلا لأنه تدرب على الاحتفاء بخساراته، ولكنه بالتأكيد حين يجلس على كومة أيامه وينظر إليها بعينين غارقتين بالذهول، يغيّر جلسته ويقول «اللهم علّم الصغار.. ولا تكسرهم»!

هذا الولد يخرج أحياناً، لكنه يمتنع عن المقعد الذي في المنتصف، ويؤكد لنفسه دوماً أن هذا المكان ليس له، وأنه لا يمكن أن يجلس إلا في مكان لا يُلمس فيه، ولا يجرؤ أحدٌ أن يطلب منه النهوض إلى غيره، ولكنه، ويا لشقائه، حين يجلس في المكان الجانبي، لا يتوقف عن الخوف من الخدعة، ويفكر: «ماذا لو كان هذا المكان هو المنتصف!».

هذا الولد الصغير.. كان أيضاً يقوم إلى طريقه كل صباح، يغسل وجهه كي يفيق، لكنه يرى شيئاً ما في المرآة يشبه الخرافة، مثلاً.. يقطع الوادي وحين يصيحون عليه «السيل.. السيل» يمتنع عن الركض، ويعتبر الهرب من الموت عاراً مخزياً، وبدلاً من أن يقطع الوادي، يعمد إلى عمقه، حيث يمكنه أن يميز رائحة التراب والشجر والحياة، ثم يبتسم ويقول بأعلى صوته «أنا.. بلدتي»

لكنّه.. لكنّه.. لكنّه.. لكنّه.. لكنّه.. لكنّه.. لكنّه.. لكنّه حين يطلق تلك الصرخة لا يموت، والسيل ينشق عن جانبيه، ولا يلمسه!

استغرقت بعض الوقت في تأمل هذه الكلمات، هل كان يتكلم عن نفسه، هل هو الولد الذي لا يقعد في المنتصف، لكنه يخاف من مقعده أن يصير منتصفاً ذات يوم، هل يحنّ إلى بلدته لدرجة حلمه بالموت في واديها، هل هو ذلك الولد ذو الهلوسات الكبيرة! «هلوسات كبيرة!.. حتماً إنه هو!»، هكذا قالتها كما لو أنها تُكلّم أحداً ما. وبلهفة مدت يدها وراحت تفتح لفافة، ثم أخرى وأخرى حتى وجدت واحدةً جديدةً..

وقرأت:

يقول الحلم: أصغ إلى النداء الغائر جداً في داخلك.. حاول أن تفهم لغته الخاصة، وتلمّس اتجاهه جيداً واتبعه، فهناك تكمن حياتك الكبرى. كل الذين صنعوا أحلاماً كبرى على هذه الأرض، بالتأكيد، قد أقسموا أن يصلوا إلى ما وصلوه، لكن بأيمانٍ مختلفة، وبطرقهم الخاصة ومواقيتهم الخاصة.. لقد استمع هؤلاء للنداء الذي ينبع من أقصى مخبأ في قاع نفوسهم، وعلى الفور امتثلوا له، وكدحوا خلفه بكل شيء ليدركوه، فكانت كل الإشارات التي يواجهونها في دربهم تحفزهم أكثر، وتجعلهم أشد إيماناً بذلك الصوت المجهول الذي يهمس من وراء ستارٍ شفيفٍ من الزمن!

لا يمكنني التصديق أن الذين غيّروا شيئاً في كيان هذا الكوكب وأهله أجمعين، أو على الأقل في أمةٍ من الأمم الكبرى، أنهم فعلوا ذلك بمحض الأقدار أو الصدفة، ولا أصدق أنهم لم يكونوا يطمحون إلى ما سيفعلونه وإلى ما بلغوه، مذ كانت تغفو أعينهم وهم في حجور أمهاتهم، فيرون شيئاً ما..

لقد كانوا يريدون هذا منذ البدء، لكنهم ربما ما كانوا يفهمون شكله في البدء، ولا الطريقة التي يأتيهم بها في منام أو جملةٍ يطلقونها بشكلٍ عفوي، ولا أيّ خيالٍ عارض، ولا يفهمون أبداً ذلك النداء البعيد القادم من غيب مستقبلهم، النداء الذي يشدهم ليمشوا نحوَ ما أرادوه بيقين مطلق.. يقينٍ تستوي في ذروته الحياة والموت، فيفقدان معنييهما في سبيل ذلك الحلم، أو أنه لا يكون لا للحياة ولا للموت أية قيمة حقيقية لديهم خارج المصير الذي يقصدونه.. خارج الحلم!

يقول الحلم: إنه لا يوجد حيّ دونما حلم، لكن أكثر الناس لا ينصتون لحسّهم، ولا يروّضون تأملاتهم حتى تستطيع تمييز ذلك النداء، إما لأنهم لا يفكرون على هذا النحو، أو لأن هناك من سرق قدرتهم على الحلم والحسّ أصلاً، فيكون مصيرهم أن يستسلموا لحياة الزحام الجماعية، وأن يكونوا نسخاً متطابقة من بعضها كأيّ قطيع يُساق بكلمة ويُردع بأخرى، وهذا ليس في جوهر موقفهم — المفروض عليهم — من الوجود فحسب، بل حتى في قواميس كلماتهم، وأذواقهم وألوان أزيائهم وأنواعها، وملامحهم وطريقة مشيتهم، ونظرتهم لأنفسهم وللآخرين، وفي آخر المطاف يصبحون أعداء شرسين لكل من لا يشبههم.. لأنه يرعبهم كل من تنطوي نفسه على حلم!.

ويقول الحلم: لا ريب أن الذين امتلكوا الإرادة، ثم عجزوا عن تحقيق أحلامهم، وتوقفوا دون بلوغها، فإنهم بشكل ما قد حنثوا بذلك القسم، وقبلوا أن يوضع في يمينهم أو في يسارهم شيءٌ ما.. فطاش الحلم، وضاع للأبد.

ومرةً أخرى يقول الحلم: أغمض عينيك كل صباح، واستمع إلى الصوت الكامن في جوفك، وامتثل له، وافعل ما يمليه عليك حسّك، وقبل أي شيء عليك أن تمتلك يقينك!.

* *

رمت ماريا هذه اللفافة على الأرض ورجع إليها وهمها السابق بأن هذه اللفائف سحر. مرت في رأسها كل أحلامها، أرادت يوماً ما أن تدخل الجامعة الأميركية ببيروت، هناك رأت البنات أكثر من مرة، حلمت كثيراً أن تكون هناك، لكنها لم تستطع، أو لم تسعفها حياتها، حلمت بالهجرة إلى أوروبا، باريس تحديداً، ولمح طيف خالها الذي لم يرجع إلى لبنان منذ عشرين سنة، ولا شيء يأتي منه غير صوته في الهاتف.. لكنها أيضاً لم تحصل على ذلك الحلم. حلمت برجلٍ غريبٍ تبحث عنه وتلتقيه في مقهى بمكانٍ عام، لم يركض خلف جمالها، لكنه تعب في حياته من أجل سرّها.. حلمت وحلمت، ثم قالت في نفسها «هل أحلامي كاذبة؟ هل كنتُ أقل مما أطمح إليه؟ وهذا النداء المجهول اللعين لماذا لم أميزه ليدلني على طريقي، وهل سيأتي؟!»، رفعت اللفافة وقرأت بعضها، وبشيءٍ من الإحساس بالهزيمة وضعتها مع كل اللفائف المفتوحة، ثم مدت يدها لتفتح واحدةً أخرى فوجدت لفافةً جديدة. كانت الثالثة..

قرأت:

— كم عدد الذين تختبئ بقاياهم في يدك؟

— إنهم كل الذين صافحتُهم.

— وما عدد الأشياء التي لا تنساها؟

— إنها كل الأشياء التي جمعتْ عليها يديّ يوماً، وما عدت أراها ولا يراها الناس، لكن سخونتها وبصمتها صارت روح الكفّ.

— ومَن تكون؟

— أنا: ذاكرتي!

راحة اليد.. أغرب أجزاء الجسد. راحة اليد تلك المساحة الصغيرة التي يبدأ منها الحب والرائحة والمواثيق، وفيها تنمو لغةٌ كل حروفها من الطبيعة، وكلماتها من الحسّ. راحة اليد.. قلبٌ مكشوف!

راحة اليد.. حتى في خلقتها تبدو وكأنها مُصمّمةٌ لتكون المكان الذي يلتقي فيه الإحساس والذاكرة واللغة.

* *

فتحت كل ما تبقى داخل قميصه، وأخيراً عرفت أنه لم يزد غير تلك الثلاث، فأعادت ربطها وحشوها، ووضعت كل شيءٍ كما كان، وأعادت اللوح الصغير، المكتوب عليه كلمة «شاليه».. ذاك المغروس فوق الحفرة.. نظرت إليه بإمعان ثم قامت. كانت وهي تسير راجعةً إلى بيتها تحكي في داخلها بما هو بين التمتمة وكلام النفس.. تقول «شاليه!!»، لِمَ هذه الكلمة بالذات؟ ما الذي يعنيه بها!؟ هل يقصد أن هذا المكان هو نزهته وراحته الكبيرة في حياته، كما يذهب الناس إلى الشاليهات ليرتاحوا من حياتهم.. ألهذا السبب كتب عليه شاليه! لكن لماذا صنع ذلك اللوح على شكل شاهد، ولماذا وضع لفائفه بداخل

قميص أبيض، هل كان يكفنها، هل أراد أن تكون هذه الحفرة قبراً لأسراره! هل ينوي ألا يعود! وأحسّت بقلقٍ عميق، لكنها تجاهلته. ثم فكرت أنها لا بد أن ترى هذا الحافل بكل هذه الأسرار الصادمة والحياة والغرابات، ستقترب منه لأقصى نقطة ممكنة. ستخلق الصدفة مرة لتتفحص ملامحه، ومرة لتلقي عليه التحية، وأخيراً ستتحدث إليه وتعرفه. أغرتها فكرة أن تكون مع رجل تعرف الكثير من خباياه وهو لا يدري.. رجل تعرف تفاصيل حياته وهو لا يعرف عنها أي شيء، ونسجت في لحظات عالماً كبيراً من الخيال الحلو حتى إنها زمت شفتيها، ورفعت حاجبيها للأعلى، وعاهدت قلبها في اللحظة نفسها أنها لن تخبره بأمر الحفرة مهما طال بهما الأمد، كي لا تصيبه في الأمان الذي اختاره لتلك الأسرار.. هكذا لمعت الخيالات في عينيها بأنوثةٍ محضة، كانت منتشيةً ومتحفزة وكأنها ترى ما ستفعله ثانيةً ثانية في تلك المغامرة، لكنها تذكرت النائم ومناماته، وخافت أن تقع في الغلطة نفسها مرتين، خطر ببالها أنه ربما يكون قانوناً أو طبعاً من طباع الغيب أن لا نبحث عمن يجب أن يأتي هو من تلقاء نفسه، إن كان مقدراً له أن يأتي، خافت أن تطير منها أسرار الغريب كما طارت كتابة النائم. تعبت من التفكير والحيرة، لكنها رأت أن الأمر مختلف جداً. النائم لا وسيلة لكي تراه، بينما يأتي الغريب كل شهر لخمسة أيام أو أكثر. ما كتبه النائم اختفى لكن ها هي أسرار الغريب خلفها في الحفرة، في قصتها مع النائم كان كل شيء خارج هذا العالم المادي، وطعناً في المجهول، بينما هذا هو الغريب يأتي ويروح قدامها كل فجر. أقنعت نفسها أنها

لن تترك للإيمان بحماقات الغيب أن تحرمها مما تريد. تراءت تلك الحفرة في خيالها، ولمع في رأسها ذلك اللوح الذي ركزه غسّان كالشاهد وكتب فيه كلمة «شاليه». . فكرت فيه مرةً أخرى وفيما يقصده به، وأخيراً تبسمت وحدَّثت نفسها بلذة أن «هذا سرٌ جديدٌ سأعرفه»، وعقدت نيّتها أن ستختلق صدفتها عصر ذاك اليوم ذاته. ستراه وتلقي عليه التحية ولو بالإيماء، ويوماً ما ستعرفه. . ستسبق كل الحماقات. ثم خطر في بيالها شيءٌ عابر: «يا ألله لو أني أيضاً أجد طريقاً إلى صاحب المنامات. . يا ألله لو يكون الغريب هو نفسه الذي يكتب مناماته!»، لكنها سريعاً ما صرفت هذه الفكرة، وخشيت أن تكون غرابة ما يحدث لها في تلك الفترة القصيرة قد أصابتها بالجنون، فصرفت هذا الخاطر المضحك من بالها بسخرية.

منام

سبتمبر ٢٠٠١

(رأيت البارحة وثنين شاهقين أصمين، تلفّ السحب رأسيهما مثل عمائم بيض، وآلاف من البشر يروحون ويجيئون في جوفهما كالنمل. وكانت حربتان محشودتان بالأسرار، تقطر الدماء من جنباتهما تمخران الجوّ، واحدة طعنت وثناً في خاصرته والثانية طعنت الآخر في كتفه، وكلا الوثنين انشرخا وتكوّما فوق بعضهما كحطب موقدٍ لا جدران له. كانا يبكيان، وكنت خائفاً وأكاد أرى وجوهاً أعرفها تحدّق بي في صفيحتي الرمحين).

١٠

على الطاولة القريبة جداً من الطاولة التي يجلس عليها الغريب في «السوليدير» كبست ماريا على جوالها، وشغّلت أغنية «شادي». كانت مرةً قد وجدت في لفائفه كلاماً خاصاً ومؤثراً عن هذه الأغنية.. وعلى الفور التفت الغريب بسرعة عفوية إلى مصدر الصوت، رأى تلك الفتاة الجميلة وهي تمسك جوالها وتنظر فيه، ووقع في نفسه أن الأغنية التي يحبها جداً هي نغمة الرنين في جوالها، ابتسم لها ليداري حرج التفاته المفاجئة، وكي يُطمئِن استغرابها الذي حدقت به فيه. تسربت إلى رأسها لذة ما فعلته ونشوة اللعبة التي نسجتها، لكنها شعرت بيقين أزلي أن ما هي فيه الآن ليست لحظة لقائهما، فاكتفت بالنظر إليه ولم تبادله حتى نصف ابتسامته، ثم صرفت نظرها وبقيت إلى طاولتها. كانت تفكر؛ «يا ألله كم هو قريب وكم هو بعيد، وكم الحياة قريبةٌ وكم هي بعيدة، وكم القدر شهمٌ، وكم هو لئيم.. إنني الآن في لحظةٍ لا تخطر إلا ببال الذي يصنع الأقدار نفسه»! وفكرت ما الذي عليها أن تفعله! حتماً لن تكلمه ولن تقترب منه أكثر، وفي لحظة كخطفة الضوء لمّت كل أشيائها وحشرتها في حقيبة يدها، وقامت بنظرةٍ خاطفة رمتها في وجهه، واتجهت إلى

المحاسب. مدت له بثمن قهوتها وانصرفت دون أن تدير رأسها للوراء، ولم تعرف لماذا فعلت كل ما فعلته.. كان الذي أحسته أن غيباً داخلياً في نفسها جعلها تقوم وتذهب.. وآمنت بيقينها أن هذا هو الذي يجب أن يحدث.. لا غير!

* *

غسّان.. وبلا أي فهم تمنّى لو أنها بقيت، ولام نفسه على حيائه، خطر بقلبه لو أنه كلمها، لو أنه طلب التعرف إليها فربما ستقبل، وربما لو دعاها أو طلب رقمها فلن ترده، وأخيراً قال في نفسه.. «لتبق الصدفة هي الصدفة!»، ثم قام هو من مكانه وذهب إلى ليله، لكنه فكّر بها كل الوقت، لم ينسها للحظة واحدة، ولم يخمن أن تلك الفتاة قد دبرت كل شيء إلى أقصى دقته، وأنها تعرف عنه الكثير، كان يظن أنه بمحض الصدفة التقى نفساً تشبه نفسه لبضع دقائق، ثم ذهب كل منهما في طريقه. لم يدر أن كل شيء كان منسوجاً ببراعة ورغبة رهيبتين؛ أن ماريا أرادت أن تضعه أمام صدفةٍ لم تتوقع حتى هي أثرها، حاكتها بكل فتنة على تينك الطاولتين المتجاورتين بالسوليدير، ولم يعرف أنها تهجس بيوم آخر، حين يعود للجبل في وقته الدائم بالشهر التالي، لتنصب له فتنة الصدفة الثانية. وكيف سيعرف!.

* *

تتذكر ماريا وهي تقف قبيل شروق الشمس في شبّاكها كيف أخذت سيارتها عصر أمس، ووقفتْ قريباً من البناية التي يسكنها الغريب.. كيف سارت الأمور بسهولة إلهية، وكأن اللّه يدعم ما فعلته ويقف إلى جانبها، كيف أنه لم يمض الكثير من الوقت

حتى خرج وركب واحدة من سيارات شركات التاكسي في لبنان. كيف تبعته نزولاً إلى بيروت.. أخيراً كيف توقف التاكسي أعلى ناصية «السوليدير» وكان الوقت قبيل الغروب، والجوّ يميل إلى البرودة. كيف أيقنتْ أنه ينوي الجلوس في أحد المقاهي، تذكرت أنها اتجهت إلى المواقف الجانبية وأوقفت سيارتها، وكيف كانت متأكدةً أنها ستجده على أحد المقاعد على اليمين أو اليسار، وإن كان وحده ستكون هذه هي الفرصة. تذكرت قلقها وهي تسير حتى المقاهي الأخيرة نهاية «السوليدير» دون أن تراه، تذكرت فرحتها حين رأته.. رأته جالساً بصمتٍ كامل، ينظر إلى الأمام، وعلى الطاولة كأس ماء وفنجان قهوة، تذكرت كل التفاصيل الأولى. كيف دلفت إلى المقهى وجلست إلى طاولة ليست بعيدة منه، كيف كان المكان خالياً إلا منهما، وكيف راحت تفكر كيف تبدأ، كيف ستسبق الوقت قبل أن يقوم وتضطر لملاحقته إلى مكانٍ آخر، وكيف برقت في رأسها فكرة تلك الأغنية التي قرأتها في لفائفه، كيف ألهمها اللّه أن تشغّلها، وتذكرت حتى حَذَرها وابتكار أعذار لو حدث وسألها، كيف ستدعي أنها نغمة الرنين في جوالها، تذكرتْ كيف حدّثت نفسها سريعاً «أكيد أكيد سيلتفت، وسيأتي الكلام، وإن لم يأت سأطلب منه قلماً أو قداحة، سأخلق أي شيء للحديث»، وتذكرت كيف لم تفعل، وكيف هجم عليها ذاك الشعور الذي دفعها للانصراف سريعاً، لم يخطر ببالها أنها ستستجيب لهذا المجهول في نفسها وتذهب دون أن تنظر إليه إلا بطرفةٍ عابرة! القصة كلها منذ البدء تجول في نفسها بنشوةٍ غامضةٍ سرت في كل ناحيةٍ من جسدها

وروحها وهي كعادتها تقف في نافذتها فجراً. وفي تلك اللحظة الملتبسة بالذات يظهر الغريب مجدداً. راقبته ككل مرة، لكن بحسّ أعمق وأشهى وأكثر ولهاً بهذا المجهول؛ «هذا هو الذي لم يكن يفصل بيني وبينه قبل عشر ساعات، سوى بضعة أشبار».. راقبته وهو الذي لا يخطر بباله أن أحداً يراه في هذا الكون، وتعجبت هي لحظتها من كل ما حدث، وكيف يبدو وكأن اللّه بالفعل يريد لها كل هذه الحكاية، وأن هذا الغريب رسولٌ من اللّه يؤدي مهمته، لكنه لا يعرف شيئاً عمّا يحدث، فأغمضت عينيها لوهلة، وصلّت بإيمانٍ خاشع شكراً للّه، وكما يحدث كل مرة فعل الغريب ما يفعله دوماً.. ثم انصرف، وهي فعلت ما تفعله بعده كل مرة، وقرأتْ وتوقفتْ عند كل لفافةٍ جديدة طويلاً، لكن هذه المرة بطعمٍ أكبر، بطعمٍ ألذّ، وأحاسيس كانت غير قادرةٍ على أن تعرف ما كنهها، لم تستطع تمييز ما في داخلها إن كان ذلك مغامرةً أو حباً أو هديةً من اللّه، لكنها كانت تقنع نفسها بأن كل هذا مقصودٌ من المجهول أو الرب أو من شيء ما في هذا العالم.. لم تعد تفهم شيئاً! هذا المجهول أياً كان أراد أن يعلّمها وأن يملأ حياتها بحكمته وقدرته على حياكة القدر والغيب بهذه الصورة العجيبة!

قرأتْ ذاك الصباح ثلاث لفائف جديدة..

الأولى:
«أمسكت بالكاميرا، وأخذت أحدّق في الصورة التي التقطتها

بإمعان، فرأيت عجوزين واقفين بعطشٍ شفّافٍ جداً، وظهرا وكأنهما ملاكان مكسوّان بالرذاذ، وكأن الماء القافز في السماء لا ينبجس من النافورة، وإنما من بين أكتافهما. وأنا أحدق في الصورة لوهلة تخيلت، وهما ينظران لبعضهما، أنهما التقيا منذ ستين عاماً على الأقل، يومها كانت هي في مطلع العشرين، وربما كان هو في آخرها، وأنا أنظر للصورة أيضاً تخيلت أن تلك المرأة وبعد ستين عاماً، كانت تقف، وعيناها ووجهها المجعد، وشعرها المنهك، وملامحها المعجونة بالأيام تسأله: ترى إلى أين صارت الأنفاس الأولى الآن؟ هل لبدت على حائطٍ في قرية أم حطت على بقعة خضراء؟ هل تمددت على شرفة أم تراها علقت بسحابة واتحدت بها، وأخذت تعبر السماء من جوٍّ إلى جوّ؟

وتخيّلت أن الرجل بعد ستين عاماً يجيبها بظهره المعكوف، ويديه الراعشتين: «أو ربما تسللت إلى تربةٍ في حقل، ومشت في عروق شجرة، ونامت هناك!»

الصورة، الصورة.. كانت المرأة في الصورة تبتسم، وكان الرجل يشد فمه للوراء بقوة، ويحاول أن يرفع حاجبيه من فوق النظارة بعدستيها الكثيفتين، التي تملأ وجهه، يحاول أن يرفع حاجبيه وكأنهما عبء ثقيل على ملامحه، لينظر إلى الكاميرا. تخيلت أنه كان يقاتل كي يظهر في الصورة كما كان يظهر عشرات السنين. تخيلت أن هذا المشهد بالذات ربما يشرح شيئاً صغيراً من ذلك الكم الهائل من المفارقات التي تلوّن كل علاقة يطبخها الزمن طويلاً بين اثنين. كأن المشهد بتلك الكيفية يوشوش بأن

المرأة كل حياتها تسأل غالباً: كم مضى؟ ويسأل الرجل كل حياته: كم بقي؟

كان الرجل بيدين مسبلتين، وقدمين متقاربتين، وكانت المرأة تمسك الوردة بيديها الاثنتين، وقدماها أكثر انفراجاً، وتخيلت أن الصورة تطفر بالوداع أكثر من الحب والذكرى، وأن الرجل بالذات صار في كامل جاهزيته ليذهب نحو الطين، وأن المرأة ما زالت تقبض على الورد. كان المشهد يهمس أيضاً أن الرجال غالباً ما يخرجون أولاً من الحياة، وأنهم أولاً يذهبون إلى المرقد!

كانت العجوز بملابس ملونة، ولم تقل شكراً.. اكتفت بابتسامة بعيدة، وكان الكهل بملابس بيضاء بلونٍ واحدٍ، هو الأبيض، وصافحني بحرارة، وقال شكراً عدة مرات بحرارة. وهما يذهبان، كان هو فقط من لوّح بيده..

من يدري، ربما كانت مجرد صورة.. مجرد صورة!»

الثانية:

«عندما نظرت للمرآة، وكان رأسي أشعث،
توهمت أنني ريشة،
وفوراً داهمتني الريح!
وحين حلّ الظلام..
كانت الشرفة التي أمشي من تحتها كل ليلة،
تعدّ محاولات انتحاري المضحكة،
وتقول لي: «أيها النمر اليائس.. لن تموت هنا!»

كان الجوّ ملطخاً بالبروق،
والقداحة الملعونة لا تخرج الغاز ولا الشرارة
وأنا حائرٌ وجبهتي تتعرق في الغيم،
وأمي كانت تطالعني من وراء جبالنا..
وتفتح جبينها ويديها!»

الثالثة:

«قبل أن يكون الكلام كان هنالك الجسد، وقبل أن تمتلئ الأفواه بالحروف كان الإنسان قديماً يخاطب الوجود بجسده.. يقولون إن الإنسان في بعض عصوره كان أبكم، لا يملك سوى أصواتٍ يحاكي بها المخلوقات من حوله، ولا لغة لديه حين يفرح أو يخاف، أو يحزن أو يحب، سوى قاموس واحد، قاموس جسده، فيفيض من رأسه إلى صدره إلى جنبيه إلى يديه إلى رجليه.. وحين يدهم الجزع مجموعةً من البشر كانت تلتفّ على بعضها، وتعبر عمّا بها بلغةٍ جسدية مشتركة، وربما كانت هذه حكايةٌ مكررة لأصل رقصات الشعوب التي ما كانت تكذب في وصف ذاتها، كان هذا قبل أن تصبح الأصوات كلماتٍ، وهذا أمرٌ قديمٌ جداً، حينما كان الإنسان لا يغشّ ولا يزوّر، حينما كان يتكلم بجسده فحسب، وحينما كانت الشعوب تعبر بأجسادها فقط!

ويوماً.. ولدت الكلمات، وكثرت شيئاً فشيئاً، وطغت الثرثرة على الحياة، وصارت غالب الأجساد بكماء، وأُهملت رقصات الشعوب، وصارت الألسنة الخداعة تتكلم على ضمائر

الناس، وبقي القليل من البشر الصادقين يتكلمون بأجسادهم حين يفضحُ العجزُ الكلام..

عرفت رجلاً كان يدعى «أبو عَذَابة»، وكان يُنادى بهذا الاسم لمدى قفزاته عالياً كالمعذب. كان ذلك الكهل الذي يقارب السبعين، دون بلاغةٍ ولا حُجّة، ولم يجد كلّ حياته طريقةً يواجه بها ما يحسه من الجور سوى الرقص، وحتى الأصوات الغريبة التي يصدرها وهو يجول أمام الناس كالأسد لم تكن كلماتٍ، بل كانت هديراً وحنيناً. وهو يقفز عالياً عندما يرقص كالملدوغ كنت أراه وكأنه كلما تذكر شقاءه تعالى عليه وطار في الهواء، ثم يرجع ليدهسه بقدميه، وكأنه يصرخ أنه لم ولن يكون الرجل الذي تهزمه أيامه»!

منام

مايو ٢٠٠٧

(كنت أنادي بصوتٍ عال، قفزاً على الحزن، كنت أقف على أطراف أصابعي، وأرفع رأسي لأقصى ما أستطيعه، كأني لا أملك شيئاً من كل ما يجب أن يقال، وما لا يجب أن يقال. كنت أرى امرأةً بذاتها مجللةً بالحناء، تطفو فوق رأسي، فأمسكتها بتلابيبها، هززتها لترجع إلى جسدها، فوضعت يدها على رأسي، وسمعت منها شيئاً ليس له صوت، لكنه عَبَر إلى داخلي: «قل لي إنك لن تتألم، قل إن الموت صغيرٌ وهامشيٌ للدرجة التي لا يمكنه أن ينال منّا!»).

١١

في الشاليه.. استيقظ غسان الخامسة فجراً. مدّ يده إلى المصباح المتدلي فوق فراشه وأضاءه، ثم وجهه إلى النافذة المكسوّة بعازلٍ أسود. بقي لنصف ساعة مستلقياً، ينظر إلى السقف، ويتنفس بهدوء.. إنها لحظة السؤال الذي يرعبه دائماً «أين كنت؟ قبل نصف ساعة.. أين كنت؟». شعر ككل مرة أنه شيءٌ صغيرٌ جداً في هذا الكون، وأن شيئاً خفيفاً جداً يكاد يطير من صدره، وشعر أكثر بكراهية النوم والموت. فكّر للحظة أنه بقدر ما في الجسد من شقاء السجن، بقدر ما فيه من الرحمة. الجسد شقاءٌ ورحمة لأنه أضيق من الطيران الذي تتوثب إليه الروح. الجسد يحبس الروح.. نعم، لكنه في الوقت ذاته يؤجل هيامها في فضاء لا جهات له، لا بدء له ولا منتهى، وكم هي هذه النفخة التي في كتلتنا الصغيرة هذه حتى تعبر هذه السماوات والأفلاك، وحتى تواجه عتمة الكون بما فيها من الكواكب والمجرات والشهب.. وتخيّل وشهيقه يعلو أكثر لو أن نملةً صغيرة تعي حجمها، وتعي وجودها، وتعي أنها في منتصف صحراء ضخمة، وأن عليها بكل ضآلتها أن تواجه هذه الكثبان والهجير والليالي، ويعذبها أنها لم تختر أن تكون نملةً، ولا أنها

خلقت في هذه الصحراء، ولا أن قدرها يدفعها من بين كتفيها دفعاً لتعبر تلك الرمال، ولا أنها لُعنت بهذا الحد القليل من وعيها!

زفر زفرةً انخفض لها صدره حتى كأنه التصق بفراشه، ثم تمتم «يا للإنسان، كم هو ضعيفٌ ومسلوب». هكذا لفظها ووجه آدم يلوح أمام عينيه حين دخل عليه آخر مرة في مكتبه، فوجده من شدة الإعياء جالساً، نائماً على كرسيه، مائلاً برأسه إلى الوراء وفمه مفتوحٌ ويشخر شخيراً مليئاً بالحكايا والغربة والبؤس. تذكر حين اقترب منه وأخذ يرفع فوقه السكين من قبيل العبث، ويحركها وكأنه سيطعنه، وآدم في عالمٍ بعيدٍ. بعد وهلة أخذ غسان يفعل هذا بخوف رهيب وعيناه تدمعان، لأنه رأى هذا الرجل الأسود المسنّ أعزل وعاجزاً في نومه، لا يملك أن يذود عن نفسه ولو بحركة من جفنيه. أجل كان يعبث بداية الأمر لكن نفسه تهاوت أخيراً، وأخذ يوقظ آدم وهو يضمّه ويبكي.

جلس على فراشه غسان متربعاً وسحب علبة السجائر، ودخّن واحدة ببطء. كان كلما تراكم الرماد في مقدمة سيجارته فركه بأصابعه.. كأنه يسأل «ما هي حياتي غير هذا!». ثم ألقى السيجارة في المطفأة دون أن يطفئها، ونهض. في الحمام لم يتوضأ، بل غسل وجهه فقط، ونظر إلى وجهه في المرآة لبعض الوقت، ثم رجع ومدّ سجادته ووقف عليها قليلاً مغمضاً عينيه، ثم طواها وألقاها على الأريكة، وقام إلى ملابسه. غسان كان يتزيّا دائماً، حتى ليظهر وكأنه سيخرج إلى عيد، أما سيارته الشخصية فكان الأمر مثيراً للعجب، إذ بالرغم من الميراث الذي

بين يديه، فإن سيارته كانت من طراز الكابريس القديمة، وبحالةٍ رثّةٍ جداً. كان يرفض كل محاولات آدم أن يستبدلها بسيارة أنيقة وجديدة ولائقة به وبما يملك..

استقل سيارته هذه، وخرج نشيطاً كأنه لم يعد لتوّه ليلة البارحة من سفره، واتجه إلى مطعم «العمّ أبو سعيد» بجوار مقبرة أمّنا «حواء»، وأبو سعيد هذا أقدم وأشهر رجل يقدم الكبدة (التقاطيع) في جدة منذ أكثر من أربعين عاماً. ثرثر غسان قليلاً مع العم أبو سعيد، ثم جلس إلى طاولة ملاصقة لجدار المقبرة ليفطر والناس من حواليه من جميع الأجناس والأشكال. حين انتهى قام ليحاسب. يرفض الرجل العجوز كعادته ، ويقول له مازحاً، وبوكزة صغيرة من يده في صدر غسان، وبلهجة جداوية معتقة «امشي انقلع». يملأ الضحك المكان، ثم يغادر غسان قاصداً فندق الانتركونتيننتال. أجل هذا ما يفعله غسان كل صباح، من ذلك المطعم الشعبي البسيط بجوار المقبرة، إلى شرب قهوته في أفخم فنادق جدة. ليبقى هناك بين تأمل كل شيء حوله، وقراءة الصحف الموجودة هناك واحدةً واحدةً حتى ما بعد الظهيرة.

في بهو الفندق أخرج ورقة فارغة من جيبه، وأخذ ينقل بعض الأخبار والمقولات من صحيفتي عكاظ والحياة. من صحيفة عكاظ نقل إلى ورقته هذا الخبر (توترت العلاقات داخل الكنيسة الأرثوذكسية في القدس المحتلة بسبب فضيحة بيع ساحة عمر بن الخطاب للإسرائيليين، وقالت مصادر فلسطينية مطلعة إن الفلسطينيين الأرثوذكس طالبوا بتعريب الكنيسة وفق سيطرة اليونان

عليها التي بدأت عام ١٥٣٤م)، ومن صحيفة الحياة نقل إلى ورقته هذا المقطع من مادة عن آخر صيحات الموضة (ربما يكون أقصى اهتمام المرأة بالعناية بقدميها هو وضع الكريمات وأدوات التجميل لجعلها أكثر نضارة وجاذبية، لكن الأمر يختلف عند بعض سيدات الطبقة الراقية في المجتمع السعودي، اللاتي يلهثن وراء آخر صيحات الموضة إلى الحد الذي يلجأن فيه إلى الخضوع لجراحة تجميلية للقدم). أما صحيفة الوطن فقد انتظر حتى خلا المكان، وقصّ صفحةً كاملة، مكتوب في أعلاها (نساء السعودية خلف المقود..) وثناها وخبأها في جيبه. في الساعة الثانية ظهراً اتجه إلى «كورنيش الحمراء». في هذا الوقت غالباً ما يكون البحر خالياً من الناس، إلا من قليلين متناثرين هنا وهناك، وأغلبهم من الأجانب. أوقف سيارته، ثم سار على الرمل حتى حافة الماء. نظر إلى أقصى ما تصل عينيه من امتداد البحر، إلى تلك النقطة التي يتماهى فيها لون السماء بلون البحر، فلا يكاد يفصل بينهما شيء. خلع نعليه وجلس فوقهما.. كان يرفع بحفناتٍ من الرمل بكفه ويصبها صباً في مكانٍ واحد، ومن حينٍ إلى حين ينظر إلى الحفرة مرة، ومرةً ينظر إلى الكومة. تذكّر حفرته التي يخبئ فيها أسراره في جبل المتن، وتبسّم ابتسامة مليئة بالرضا، ثم مرت بذهنه الفتاة التي جلست بجواره في السوليدير، حدّق في حفرة الرمل فرأى وجهها صافياً ومشعّاً بين ذرّات الرمل.. ورجع عليه ندمه أنه لم يكلمها. قام.. ونفض الرمل عن ثوبه، وبسيارته اتجه إلى سوق «الصيرفي مول»، بشارع «التحلية». في الطابق الثاني من السوق يمشي غسان وهو ينظر في

كل شيء؛ المحلاّت، الأطفال، الفتيات، والمراهقين ذوي البنطلونات المرخية، وقصات الشعر العجيبة.. لكن ما يتوقف عنده، وكان يسترعي انتباهه في كل هذا. أن يرى شاباً يمسك بيد فتاة وهما يسيران جنباً إلى جنب، فيتابعهما بنظره وهو يشعر بالخوف عليهما.. حتى يغيبا! مكث حتى دنا الغروب. وقبل أن تغلق المحلات أبوابها لصلاة المغرب، خرج من السوق واستقل سيارته عائداً للشاليه، كان يسير ببطء شديد.. انهالت عليه ذكرياته من كل صوب، وتداعت الوجوه التي عبرت حياته: عالية، والده، صورة أمه، طليقته، والعجوز السوداني. طفولته وشبابه، مآسيه ومشاجراته، عزلته ورحلاته، والجبل والبيت المهجور وأسراره وحفرته.. ومرةً أخرى تلوح أمامه قسمات البنت التي لم يكلمها ولو لدقائق معدودة حيث كانا يجلسان إلى طاولتين قريبتين من بعضهما، في مقهى خالٍ من الناس في السوليدير!

عندما دخل مسكنه رأى حقيبته على حالها منذ عودته ليلة البارحة، لم يفتحها ولم يحركها. وقف أمامها قليلاً، ثم أخرج هاتفه واتصل بالخطوط الجوية، وحجز على رحلة الصباح. لم ينم، وقبل أن تطلع الشمس خرج إلى المطار، وأنهى كل إجراءاته وجلس في صالة الانتظار، ولم يمض وقت طويل حتى كان في مقعده بالطائرة.. لكن وجهته هذه المرة لم تكن إلى بيروت.

منام

يناير ٢٠٠٨

(رأيت فتاة لا أعرفها، وكأنه أيضاً لا أحد يعرفها، لم يكن بعض جسدها واضحاً، وكان يخرج من صدرها خيطٌ من خيالٍ، الخيط نفسه يسبح في رأسي. حينها تذكرت شكلي وأنا أرمي أول سنّ من فمي لعين الشمس.

الفتاة.. لها عينان مسمّرتان على شرفة الليل؛ هناك في غياهب هذا الكون السرمدي، وكنت ألمح نجمةً بعيدة، وكلّما بزغت النجمة، التي لا يراها سوى الضّالين، أخذت الفتاة مكانها في عنق السماء، وراحت تراقب الدمى المعلقة بداخل الدكاكين الموصدة، وتعدّ الدلافين التي تقفز في منتصف المحيط.. ولا تشعر بالخوف والمجهول، وإذا أحست بالوحدة.. أصاخت أذنيها إلى اليرقات وهنّ يحلمن بالأجنحة..

وحين طلع الصباح وضعت الفتاة خصلاتها على وجهها.. ونامت في لحافٍ من الكلمات!).

١٢

لفافة الكلام..

(رجعت من بيروت إلى جدة بقليلٍ من الذكريات والفرح، ووجه فتاةٍ لم أرها سوى دقائق، وأدري أنها ستعيش في داخلي للأبد! لقد كنت أحمق أو مريضاً، أو بالأصح كنت أحمق ومريضاً. كان يجب أن تكون هذه الفتاة قريبةً مني، لقد اطمأنيت إليها، لكني تركتها تذهب ولم أكلّمها.. وقد ذهب كلانا للأبد!

رجعت للسعودية لكني لم أطق البقاء هذه المرة ليومين كاملين، فرحلت مرةً أخرى من هذا الضيق الذي أنا فيه إلى أرض الله الواسعة، ولا أدري متى سأعود، ومن هنا، من بلادٍ أخرى، ومن قلب مكانٍ بعيد أكتب لأخرج أشياء تغلي في ركن قصيّ من نفسي، أرغب في قولها حتى لو استغرق الأمر عمراً، وحين أكون في جوعي الشره هذا للكلمات، أصبح مثل شاحنة بلا مكابح، تندفع بهستيريا شديدة الهمجية، لكن أي شيء خفيف يمكن أن يعترضها.. يعني أن تصطدم شاحنتي مثلاً بكلمة أو حتى نظرة تكسر الخاطر، أو أن تخرجها خيبةُ ما عن مسارها، فتنقلب شاحنة كلامي. عندها ستخمد رغبتي حتى قاعها، ولا يبقى غير دويّ هائل، أنا فقط من سيسمعه!

هاه! من يمكنه أن يجيبني ؛ ما حقيقة هذه الحياة؟!

أفّ.. أفّ! أتساءل وأنا أعرف أن كل حقيقة هي بالضرورة غامضة ومؤذية.. إنهم يكذبون حين يصفون حقيقة ما بالوضوح، هذه خيانة لطبيعة هذا العالم العابث وبنيته. أنا أكره الحقيقة!

أف.. ف ف.. لا أريد أن أتحدث مثل الحكماء والأساتذة والمخلصين، لأنني أحتقر كل هؤلاء، وأعتبرهم سبباً مباشراً للتضليل والخداع الأبدي، أكثر منهم للهدايات والحياة.. إنني أتكلم لأني ضالٌ ومتعب، ينظر إلى نفسه والآخرين من حوله، وحتى إليك أنت أيتها المجهولة، أنت التي لا أعرف عنها إلا ما ينجم عنك في قلبي من الهواجس، لكنني أحكي لك الآن، وكأننا التقينا منذ قرنين ماضيين، وأفكر ما معنى كل هذا؟! ما معنى: «أنا»، و«آخرين»، و«وجود»، و«كائنات»، و«أنت» و«القدر».. إلخ؟

اليوم.. أكثر الأيام قرباً لنفسي، وأكتب به ما لا أكتبه في سواه. إنه الأربعاء، الأربعاء الذي كانت تصيبني فيه سكرة ساحرة في الحصة السادسة في الابتدائية والمتوسطة والثانوية بأيام المدرسة، ومؤخراً استطعت التعرف على هذه السكرة ورؤية ملامحها، إنها جمرة الحياة الحرة الحارة جداً في دمي.. كانت تستيقظ قليلاً في ذلك الوقت بالذات، ليس لأنني على وشك الحصول على يومين من الإجازة، بل لأن تلك الحصة بالذات (السادسة) كانت دوماً شبيهةً بلحظات التحرر من أغلالٍ شاذة.. لحظة التأهب للخروج من معتقلٍ ما، والانطلاق نحو فضاء بلا شرط. أعتقد أن هذه السكرة ستأتيني قبيل موتي، إني على يقين

بأني أعرف توقيت موتي من الآن، كما كنت أعرف أنني في الحصة السادسة، وأنه لم يبق سوى دقائق ويقرع الجرس.. وأطير! أعرف حين تأتي تلك السكرة أنه لم يبق أمامي سوى وقتٍ قصير لأقفز إلى الهدوء الأخير، هناك في الصمت المطبق، وإن صدقت الأقاويل فسيكون إلى حياةٍ أخرى، وإن لم تصدق فليكن العدم.. والعدم ليس سيّئاً، إنه عالمٌ سحريٌ رهيب، لدرجة أنه لا يمكن لأحدٍ أن يشعر به، أو أن يتحسس موقعه منه. إن العشب البكر الذي لم ينبت بعد في أرضٍ بعيدة عن الأنظار، العشب الذي لم يصدف بعد أن يتعاشر عليه غريبان لا يعرفان بعضهما، ثم يذهبان.. العدم هو اللا شيء الكبير الذي تنتهي إليه كل الحكايات.

بأية حال.. أريد أن أحكي الآن فحسب، وأمامي هذه النوافذ والمرايا.. وفنجاني وقراطيس أكتبها، ورواية أقرأها، أو أعيد قراءتها، رواية اسمها (المزحة).. كل ما فيها يؤكد أن كلمة أو عبارة ما، قد يسمعها أو يقرأها أو يقولها أو يكتبها شخص ما وهو لا يعنيها أو يكترث لها، لكنها تتحكم في مصيره للأبد. هذا صحيح.

حسناً.. وبمناسبة (المزحة) وسائر الصدف وأحداث الغيوب.. لقد بحثت عن صورة لشجرة تخصني في بقعة ما من هذا العالم كنت قد جلست تحتها يوماً ما. حين وجدت الصورة فكرت ماذا لو فعلتها امرأة وجلست تحتها بالصدفة! وتخيلت أنها ستشعر بروحي تتحرك حواليها وقد تلمسها، وهذا الكلام ليس من الدجل، ولا من دروشات الروحانيين.. بالفعل لقد تركت

شيئاً مني هناك، حيث يمكن أن تقع مصادفة وتجلس إحداهن في المكان نفسه، ستكون هذه كيمياء مجنونة ومخيفة، وسأعتقد دوماً أن تلك المرأة مبعوثة من إحدى زوايا الكون وقواه السحيقة. سأطلبها ألا تنبش خصلاتي التي دفنتها تحتها، تحت شجرةٍ استطاعت أن تمنح روحي ملاذاً حقيقياً، ولو لوقت قصير، في مواجهة هذا الخراب الشاسع!

إنني أؤمن أن هناك رابطاً ما يصلني بشجرتي في الغيب وما تحتها كل يوم. الأمر أشبه ببطاريتين وسلك ومصباح، تلك التجربة الساذجة في كتاب العلوم، أنا هنا وشيء مني هناك، ومجالات الغيب هي السلك، وثمة مصباحٌ يضيء في مكانٍ ما وفي لحظةٍ ما من هذا العالم.. وبكل يقين فإن حزينةً وضالةً مثلي هناك في نقطة مجهولةٍ من الوجود ستلمح هذا الضوء.. ستتساءل ما هو، مثلما سألت أنا ليالي طويلة ومراتٍ لا تحصى: «ما هذا الضوء؟».

أكتب بين السادسة والسابعة، ولم أنم سوى أربع ساعات تقريباً منذ الأيام الثلاثة الماضية.. وكانت اليوم، من الثانية والربع بعد الظهر وحتى الخامسة، وهذه اليقظة المجانية في حياتي لا معنى لها، لأني لا أعرف أصلاً كيف يكون لليقظة معنى، هل هي أن أقول إنني ذهبت للسينما، أو جلست طويلاً في ضوءٍ ليس ضوءاً، أو ابتعت كلبةً ملعونة، واقتدتها كي نصعد جبلاً، أو أن نعد الشوائب العالقة بوجه وادٍ أو نهر، أو أن نتجول في سوقٍ تافه، وكلما مررت بمحل يبيع الملابس الغريبة دخلته فوراً، حيث سأرى الناس هناك يتصارحون عبر أشكالها المغرية بما

تنطوي عليه خلواتهم من الأحلام والروائح والرغبة. أحب رؤية الناس، ولا أحب الحديث إليهم!

المهم أني أعرف آخر الأمر أني في يقظةٍ مجانية كل سنيني، لأني – على أقل تقدير– لم تكن لديَّ شرفة صغيرة، وعلى حدها مقعد واحد فقط، يمنحني فرصة صمتٍ أليفٍ وناعم، أتأمل من خلاله لهجة الأقدام وألوان البناطيل، وأحجام الصدور والحكايا العالقة بالملامح.. إن أكثر الأشياء نذالةً وفتنة هي أن أتفحص الزحام، وأنا أتمسك بهذا التوصيف النذل. بصراحة هي ليست مجرد يقظة مجانية، إنها عقابٌ وجودي لأنني كنتُ هنا، في هذا المكان الموصد من رأسه حتى نواتف رجليه.

يا إلهي، وحق الله، أشعر وكأن الهواء والنباتات والبحر، بجلالة قدره، ينظرون إلى حجم التشوّه النفسي الذي يمرّ به الخلق هنا بازدراء وحنق، ولا يفهمون لماذا كان عليهم أن يكونوا في هذه البقعة!

حسناً! سأقولها بشكل سخيف وممجوج هكذا: إن الشجر والحجر والبحر والريح مخلوقات وجدت في الأصل لتكون شواهد الحكايات، ولكنها هنا لا تملك سوى حفنة من ذكريات لأناسٍ ماتوا من عشرات السنين، وليس لديها الآن سوى القحط والجفاف الهائل الذي يغمر كل شيء، مثل لحافٍ كريه جيء به بالذات ليغطي جثةً هامدة.. أما الحكايات والأحلام العبثية الصغيرة، التي تجعل للحياة طعماً آخر، فقد هربت من الحقول والأزقة والقلوب إلى غرف الفنادق والشاليهات، وهذا الهرب القذر لا رئة له ولا أنفاس سوى اختلاسات البشر المخجلة. إنهم

في عقابٍ فظيع، لأنهم لا يفهمون حتى هذه الاختلاسات القميئة، يريدون أن يزرحوا تحت هذا الخور والجبن المؤسف فحسب، لم يفكروا أن ما يختلسونه هنا يعتبر من بداهات الوجود، حتى لدى أشد البشر الآخرين بؤساً وعوزاً!

أتذكر فجر أحد الأيام أني خرجت واستسلمت لضلالة الدوران الحرة بالسيارة، من البيت للبحر، للسعي جيئةً وذهاباً على الكورنيش. حين بدأت لسعة الشمس، اتجهت لبهو فندق الهيلتون، ولا أشك أبداً بأن أكثر من يجلس في مقاهي الفنادق الضخمة هنا هم الفقراء والمعدمون، وربما في كل مكان. إنها حالة لا شعورية من الانتقام والحيازة، وبالرغم من أني لا آبه للمال، إلا أني لم أذهب للهيلتون لأنتقم من النائمين فيه ولا من فخامته، بل ذهبت لأن هناك مشهداً رائعاً، كنت وما زلت أشعر بمتعته، وكأنني جلست بمقعد أمامي ومباشر، في صالة سينما مهيبة، تقدم فيلماً متناقضاً وغريباً وحزيناً ومضحكاً، ومخيفاً ومسلياً، ووثائقياً وتلفيقياً خرقاء.. هذا كله في وقت واحد، حيث سأرى جهاراً المواعيد الطافحة باللعاب والمجردة من الحب، والسكارى الملطخين بالسرقات والقسوة. سأرى ملكات الليل السحريات ينصرفن، والليموزينات بانتظارهن في الخارج، وهنا وهناك أرى المقاعد المخملية التي تتناثر عليها أجسادٌ مختلطة، هدّها إعياء السهر والانتظار والأرق والخمر والجسد!

الحاصل أني أكلت قضمة واحدة من قطعة دونات مقززة، ثم شربت شاياً أحمر، ثم أخضر، ثم قرأت من الكتاب الذي معي تسعين صفحة بقليل من التركيز، ثم دفعت الفاتورة وعدت.

ومرة أخرى..

قرأت ادعاءات المؤمنين والملحدين كثيراً، لكني أشك أن يكون هناك أحد من الفريقين يملك بصمة روحه في الغيب.. الغيب الذي لا يستطيع التعرف عليه ولا تذكره أحد. غيب المغارات العميقة بالداخل، التي تشبه أن تقول لنفسك عن شخص تلتقيه أول مرة إن هيئته قد مرت عليه من قبل، هل حدث في عالم آخر غير هذا العالم البليد؟ لا الملحدون بكل عنادهم يعرفونَ يقيناً من نحن وكيف جئنا وإلى أين سنذهب، ولا المؤمنون بكل تعصبهم يعرفون يقيناً من نحن، لا يعرفون العالم الذي جئنا منه ولا ما يقولون أننا سنذهب إليه! آه يا من يعرفنا يقيناً.. أين أنت؟

بالنسبة لي فأنا أملك يقيناً صغيراً واحداً؛ أن أول مرة أصابني فيها الأرق كان في اليوم الثاني من مجيئي للحياة. كنت منهكاً في اليوم الأول وأحتاج للنوم أكثر من حاجتي للحياة كلها، ونمت واستيقظت اليوم التالي من حياتي وأنا قليل الرغبة في النوم.. هذا كل شيء!

حتى هذا لا يهم!

الآن.. لديَّ نزوة ملعونة؛ بدايةً.. لا أحب الكذب، وخصوصاً ذاك الكذب الذي يقوم عليه مصير ما، لذا سأقول ما بداخلي؛ لقد خطر ببالي أنني وكائنٌ مجهول، نمشي باتجاه أننا سنعرف بعضنا، في لحظة ما، وهذا وعزة الله، ما لم يكن في نواياي ولو لثانية، وربما لم ولن يحدث أصلاً، والفكرة التي سأقترحها (وأقترحها من قبيل الانتصار على هذا الخاطر) أني لا

أريد أن يعرفني هذا المجهول الذي أحاكيه، ولا أن أعرفه.. لا أريد أن نفعل الشيء ذاته الذي تفعله كل هذه الملايين من البشر التي تجمعها المصادفات ثم تتعارف، فتقع في الوله وأقاصيص السراب. بل أقترح على مجهولي هذا بدل أن نتعارف.. أن نخلق بعضنا مرةً أخرى. لا أعرف كيف أشرح الأمر.. لكني سأحاول.

كل ما أعرفه عنك، أيها الكائن المجهول، أنكِ فتاة، وأنكِ تعيشين هناك، وأنكِ تحبين أغنيةً أحبها.. وأنا رجلٌ تجاوز الأربعين، بلا أبوين ولا أطفال ولا زوجة ولا أصحاب، وأحب أغنيةً تحبينها. ولن أحتاج معرفة من تكونين، لأنني أعرفك بغريزتي منذ أول خوف، ولا تحاولي معرفتي لأنك سترينني، بالغريزة نفسها، منذ أول خوف أيضاً، وكل ما سنعرفه عن بعضنا لاحقاً سيكون امتداداً لتلك التعاسة الأولى!

وماذا؟

المكاتيب، أيتها المجهولة، سأقول لكِ بالفم الملآن أنها تخامرتني رغبة عارمة ورهيبة في الحديث إلى غيبك بما تطفح به هذه النفس من أوجاع وهواجس وكوارث وأحلام وتناقضات، ولو على سبيل أن أحفر لكتاباتي حفرةً ساكتةً، لا يراها أحد تحت جدار بيت مهجورٍ بمكانٍ بعيد.. ولا أدري لِمَ شعرت أنك تسمعينني. إنني أكاد أرى عينيك على حكاياتي لحظة كتابتها، وهذاغريب! وأظن أنه مجرد وهم، لكنه صادق.. مثلما تنتابكِ حالة بكاء أو حزن غير مفهومة، لكنها تؤثر بك وتحني رأسك،

وتجعلكِ تتكرمشين وتحشرين برأسك بين رجليك كأنك تفتشين عن حلّ أو مخبأ ولو لثوان!

وربما أذهب لهذا الحمق الفظّ لأني أردت أن أسوّر غربتي عن هذا الواقع بالإغراق في المجهول لأصل إليكِ، كي نغوص بالحلم إلى كهوفٍ معتمة في ذواتنا، ونحن غير مأسورين بمن نكون، ومن نحن حقيقة. يمكننا أن نصير نجمتين متجاورتين جداً في مدى النظر، ولو كانتا بعيدتين بآلاف الأميال في حقيقة السماء، يمكننا أن نحتمي بمجهولنا وحلمنا من لعنة قبيحة هي أغلال حيواتنا، تلك الأغلال التي تنخر حساباتها كل شيء رقيق.. هل كان هذا الحلم خطأً؟!

سأخبرك كيف خرجنا من عالم مجهولنا الأبدي لمرة واحدة والتقينا في مقهىً عابر، ثم رجع كلٌ منا إلى خيالاته، وقد رأيت ذلك البريق المحض في عينيك، رأيت أسراراً رهيبة، وفي اللحظة نفسها شعرت أني لا أحتاج معك إلى أي صمتٍ أو كلام، كأنك تعرفين حقيقتي، بالرغم من كوننا لم نلتق سوى دقائق معدودة، ولم يغضبني أو يزعجني إحساسي أنك ترينني عارياً، بل على العكس شعرت بطمأنينة لم آلفها من قبل.. وهذه هي القصة: أنا من حينٍ إلى حين أسافر إلى بيروت، وغالباً ما يكون في التوقيت نفسه من كل شهر، وبيروت هذه لا أكاد أراها لأني أسكن في الجبل وأقضي وقتي بين أشجاره وفي نواحيه، وكنت قد وجدت في مكانٍ منه بيتاً مهجوراً، وخطر لي أن أحفر به حفرة وأجعلها مخبأً لكل أسراري وكلماتي. استمر هذا الأمر لأشهر، وفي أحد الأيام شعرت بضيقٍ غريب في

الجبل، وكأن شيئاً يسوقني إليك، فنزلت إلى مكانٍ يسمونه «السوليدير»، وجلست في أحد المقاهي، هناك حيث جئت أنت — أيتها المجهول — وجلست إلى إحدى الطاولات المجاورة وكنت قد لمحتك أول ما دخلت ثم صرفت نظري، وحينما رنَّ جوالك بتلك الأغنية والنغمة بالذات لم أستطع التحكم في نفسي، فالتفتّ إليكِ بذلك الشكل المكشوف، ووقعت العين في العين، ورأيت أشياء كثيرة في تلك النظرة بيننا. لم نحدّث بعضنا ولو قليلاً ثم قمتِ أنت وذهبت، ولا أعرف لم انعقد لساني على ذلك النحو فلم أطلب منك البقاء أكثر، لقد ذهبت وبعد دقائق من ذهابك قمت أبحث عنك في كل مكان في ذلك الشارع وبين تلك المحلاّت، لكنك اختفيت تماماً، وعرفت في نفسي أنكِ ضعتِ مني للأبد، وأنه يجب أن يرجع كلانا للمجهول الذي جاء منه فحسب. في تلك اللحظة بالذات وقع في نفسي أني سأرحل غداً بصمت، لكنه يجب أن تنتهي تلك الحفرة في البيت المهجور بكل أسرارها، لا أعرف لماذا أحسست كل هذا الغبن أني لن أراك مرةً أخرى، لدرجة أني حدّثت نفسي أني لن آتي إلى هذا المكان مرةً أخرى إلا بعد حينٍ قد يطول جداً، سآتي فقط لآخذ أسراري وأمضي، سأحفر لها قبراً أخيراً في ذلك الشاليه المقفر والوحيد في جدة لتموت هناك للأبد، لأني لن أتذكرها ولن أخرجها منه ما عشت، سأعيدها إلى تلك المساحة المعبأة بالخوف والضجر، مع أولئك البشر المسلوبة حياتهم. حقاً لا أعرف متى سيكون هذا، لكنني سأفعل، ولأني سأخرج أسراري من تلك الحفرة ذات يوم،

دعيني أقص عليك كيف كانت أول مرة آتي بها إلى لبنان وأكتشف هذا الجبل العظيم.

ذهبت لـ «دوام» في يوم قديم، تشاتمت مع مدير الإدارة التي عملت بها لوقتٍ قصير، قال لي «أنت لا تلتزم بدوامك، توقّع.. وبعد ساعتين تذهب!؟»، قلت له: أناديك يا دكتور أَمْ يا يوسف؟ فنظر إليّ نظرة من يدري أني أنوي على شيء لا يعجبه، وهو — طبعاً — يعرف لساني وانفعالاتي. قال لي لو سمحت: تلتزم بالنظام، فلست أنا من وضعه. أجبته: اسمع يا أنت، ودعني أقول كل كلامي لأنه لا شيء عندي غيره، ولا بعده.. عندما كنت في المدرسة الابتدائية كنت أفكر دائماً كيف أقتل المدير، لأنه دخل علينا الفصل إحدى المرات، وحتى يخيفنا ضرب ابنه الذي يدرس معنا في الفصل نفسه، ضربه حتى برك في الأرض، وبقي هذا الحلم يراودني حتى هذه اللحظة: أن أقتل مدير مدرستي.. نعم فكرت بقتله مع أنني أرى الناموس يقع على يدي فأهشُّه كي لا أؤذيه. انا أكره الدماء، لكنني مستعد لقتل ذلك المدير، أو لنقل ذلك الخنزير العجوز.. ومثله أيضاً حدث في المرحلة المتوسطة؛ كان في فصلنا طالب شاذ، أظن أنه لم يسلم حتى من عمال النظافة، وكان مدرس الجغرافيا يعشقه ولا يكفّ عن التغزل به، ولا يتورّع أن يضع يده على أنحاء جسده أمام أعيننا وبلا أي مبالاة. كنا لا نستطيع قول أي شيء لرعبنا من وحشية ذلك الأستاذ السافل، وفي أحد الأيام سُرق جهاز راديو جاء به ذاك الطالب الشاذ، وبالطبع لم يذهب ليشتكي للمدير، بل اشتكى عند مدرس الجغرافيا البغل، أذكر أن ذلك المدرس دخل

علينا في الحصة الخامسة ومعه خيزرانه ملفوفة بعشرة أشرطة حمراء من أشرطة اللصق. لم يبق طالب في الفصل لم يبكِ إلا أنا، نعم أنا الوحيد الذي لم يبكِ، وهذا ليس فخراً بل لأن أبي كان يجن جنونه حين يراني أبكي لأي سبب، ويقول «من تراه الناس يبكي فليس ولدي»، وأنا كنت أخاف أن لا أكون ابن أبي، لكن هذا غرّمني أضعاف أضعاف ما ناله بقية الطلاب. ببساطة لقد تحوَّل الأمر إلى تحدٍ جائر بيني وبينه. وضح تماماً أني صرتُ هدفه الوحيد، فضربني ثم ضربني ثم ضربني، وحين نزف الدم من يدي وأنا أنظر إلى عينيه بوجه أحمر ومقلوب، توقّف وطلب ورقة وأمرني أن أكتب أنني أنا الذي سرقت الراديو، فلم أكتبها. كتبها هو وأمرني أن أكتب اسمي وأن أوقع، ولم أجبه بغير النظر الحانق والصمت.. انتهت الحصة وسحبني للإدارة، وقال للمدير والوكيل والمرشد وسائر المدرسين أنني لصّ وأنني أسرق زملائي في الفصل. دخلت في ساعات من التحقيق، وأنا لا أجيب بغير كلمة واحدة، كنت أقول «لا». وأخيراً.. دخل الوكيل وقال «وجدنا الراديو، وعرفنا من الذي أخذه.. اتركوا هذا الولد المسكين يرجع إلى فصله، لم يفعل شيئاً»! شعروا بذنب رهيب وانقلبوا يمدحون رجولتي وعائلتي ومستواي وأدبي، ثم قالوا ارجع إلى فصلك لكني رفضت وبقيت مكاني لا أقول كلمة، ولا أتحرك حتى نهاية الدوام، وعندما قُرع الجرس أخذت حقيبتي ورجعت إلى بيتي مشياً كالعادة، وفي الطريق لحق بي مدرّس الجغرافيا نفسه ووقف بسيارته أمامي، ونزل ليمد يده بخمسين ريال كي يراضيني وحتى لا أخبر والدي بما حدث.

كرهته أكثر ورفضت خمسينه السافلة تلك بعناد كبير، وأخيراً سألني: ما يرضيك؟ فأجبته فوراً «أن تموت».. ومشيت!

وأنا أحكي لمديري يومها تينك القصتين نسي هو كل ما نتكلم لأجله، وأخذ يستمع إليّ ولا يريدني أن أتوقف، لكنني بعد أن أنتهيت من القصة الثانية.. سكتُّ قليلاً، ثم وجهت له الكلام فوراً، قلت: «لذا أقترح عليك أن تبتعد عني، لأني شخص كما ترى مليء بالعقد والترسبات، وقد أفكر بقتلك، ولعلمك سأغيب لعدة أيام، لأني سأسافر لأول مرة إلى بيروت وافعل ما يريحك.. احسبها من إجازتي، أو احسبها غياباً، وأوراقك، التي ستكتبها ضدي، فلتتأكد أني لن أسألك عنها. يهمني أن تفهم أنني منذ طفولتي كنت أفضل الموت على القبول بالظلم، أو التوسّل، فهمت؟».

رأيت في عينيه لأول مرّة حباً، لكنني تجاهلته، وحين ركبت سيارتي فكرت فيما قلته بشأن السفر الذي لم يكن يخطر في بالي، وبالذات لبيروت التي لم أزرها من قبل، لكنني هكذا أعيش.. وبالفعل اتصلت بمكتب الخطوط، وقلت للموظف أنا مخنوق في بلدكم وأحتاج أن أرى بيروت التي لا يكفّون عن الحديث عنها. أحتاج بعض الأغاني التي تحرّمونها هنا.. فضحك وضحك، وقال «والله الرحلات مقفلة، وليس أمامك غير رحلات الانتظار، لكن أعدك أن أفعل ما بوسعي»، حجز لي في قائمة المنتظرين، وبعد العصر اتصل بي وقال جهّز حقيبتك ودربك السلامة، وأعطاني رقم جوّاله وقال وهو يضحك: «أنا زهير وأرجو أن تتصل بي حين تعود!» ضحكت وشكرته..

وفكرت وأفكر: لماذا يحب الناس هذا النوع من الحديث العاري؟ لماذا تتملكهم هذه اللغة الصادمة؟ ألأنهم يحلمون لو استطاعوا أن يتكلموها وأن يبوحوا بمكنوناتهم دون تحفظ ولا زيف، لكنهم أجبن من ذلك!

المهم أنه كان في جيبي ٨٠٠٠ ريال، وقررت أن أقضي عليها هناك، وحين تنتهي سأعود.

حين وصلت بيروت مساء الثلاثاء قلت للسائق أريد أن أسكن في مكان لا أسمع فيه صوتاً لبشر، خصوصاً الخليجيين، أنا بحاجة حقيقية لمواجهة الصمت وجسد الطبيعة، واتفقنا أخيراً على أي مكان مناسب برأيه في أحد المتون الثلاثة.

حين وصلت والتقيت وجهاً لوجه برائحة الأشجار والليل الأليف وقليلٍ من الهواء البارد، عرفت أن هذا هو المكان الذي كأنه خُلق ليكون بانتظاري.. وليتكِ هنا من أول مرة، أيتها المجهولة، كنا سنجلس بين هذا الشجر الكثيف ولا نتحدث، سنكتفي بأن نتساند بكتفينا ونجيل أعيننا في كل شيء، لابدّ أن منظرنا ونحن لائذان ببعضنا سيبدو كمنظر متهمين ينتظران حتفهما. على الأقل كنت سأترك كل أسراري وكلماتي عندك بدلاً من تلك الحفرة وذلك البيت المهجور!

أعتقد أنني لست بحال طيبة الآن لأنني مسحت أكثر مما كتبت، وأنا أثق بما نمسحه أو نخفيه، أكثر مما نثبته أو نعلنه.. لقد كتبت هذه العبارة ثم مسحتها، وشعرت بالعار حيال تعبيراتي البلهاء هذه، وأخيراً قررت أن أسخر من هذا الخيال العبثيّ، فأعدت كتابتها حتى لا أغش من جهة، وحتى لا أكون جباناً أمام

الغيب من جهة أخرى. في تلك الرحلة الأولى لبيروت خرجت مرةً مع السائق، وقطعنا مسافة طويلة، ما يعادل ساعة كاملة من الوقت، متجهين إلى مكان اسمه «زحلة» على ما أذكر، وهناك كانت الصدمة التامة، لقد وجدت وادياً جارياً غزير الماء، وما أشدّ ضعفي أمام الوديان! وبالرغم من تنبيهات السائق، ورجاءاته أن لا أقترب من الحافة، إلا أنني فعلت وليس هذا فقط، بل انطلقت أقفز من فوق صخرة لصخرة أخرى.. لكن ماذا حدث؟ سقطت في الماء وصاح السائق، أما أنا فصحت لأنها باردة.. باردة، وكأنها تُصبُّ من الجليد، لكني بحق كل الوديان ما طلعت بل بقيت على الأقل لربع ساعة، ثم خرجت وجلسنا في المطعم بملابسي المبلولة.. كان منظري لافتاً للجميع، وما وقعت عيني بعين أحد إلا وابتسم. ثم حدث أني طلبت من ثلاثة عمال أن يأتوا معاً، وكان صوت المسجل المركزي بالمطعم يملأ المكان، ووقفت وأمسكت كل واحد من جهة، والثالث طلبته أن يقف بجوار أحد العاملين، وهم منقادون لي بشكل حميم، وحين صرنا صفاً واحداً قلت ماذا تنتظرون؟! هيّا.. دبكة! ودبكنا... حتى رأيت الشجر من حولنا يطوف معنا، ويرفع جذوره حين نرفع أقدامنا ويضعها حين نضعها. كان يوماً مذهلاً!.

لا أدري لماذا انتهت رغبتي في الكلام الآن.. سأخبرك فقط أن تلك الدقائق المعدودات توازي عمرنا الخارق في المجهول. لن أكمل!

١٣

على وسادتها تحدّق ماريا في اللوحة المثبتة على جدار غرفتها، كانت لوحةً للإيطالي موديغلياني، اشترتها قبل عامين، واللوحة لم تعد تبدو معلقةً على الجدار، بل كانت كأنها متماهيةٌ معه. نظرتْ طويلاً فيها، ثم صرفت نظرها وأدارت كل جسدها إلى جنبها الآخر، موليةً ظهرها للفتاة المرسومة والجدار.. تذكرت بكاءها حين رأت الفيلم الذي دفعها لتبحث عن اللوحة وتشتريها، الفيلم الذي وثقوا به حياة موديغلياني وكيف دمّرها. قامت وفتشت عنه وشغّلته.. وتسمرت أمامه كأنها تراه أول مرة. موديغلياني يحب فتاة ويرسمها دوماً بعنقٍ طويل وعينين خاليتين من نونيهما. سألته الفتاة لماذا يفعل ذلك فقال لها إنه سيرسم عينيها حين يلمس روحها. تزوجا وأنجبا طفلةً وعاشا مرارات كثيرة.. وفي الوقت الذي لمس روحها ورسم عينيها في آخر الفيلم.. يموت مقتولاً في أحد أزقة باريس. وللمرة الثانية تذهب بها قصة موديغلياني وحبيبته والفيلم إلى الجحيم. لم تكن تريد أن تصدق أن الفن الكبير لا بدّ أن يكون غارقاً في تعاسة كبيرة. فكّرت أنه ربما كانت هناك مبالغة ممن صنعوا الفيلم، في تصوير

شخصية هذا الرسام الشقي؛ أحقاً لا شيء يمكنه أن يقتل الفن العبقريّ سوى عبقريته ذاتها؟ هل حقيقة حياة أي إنسان هي بالضبط حقيقة موته؟ وحين يضع أحدٌ إصبعه على حقيقة حياتنا أيكون قد وضعها بالتمام على حقيقة موتنا؟ هل جوهر الفن العبقري يعمل على تمزيق جسد صاحبه حتى النهاية؟ هل يريد الفنّ أخيراً أن يأخذ روح صاحبه من ضيق الجسد إلى حرّية الموت الأبدية؟؟ قالت في نفسها «ربما..». عادت ماريا إلى فراشها وقابلت اللوحة ويدها تحت خدها وهي تتمتم: «موديغلياني وجيان، والأعناق الطويلة، والمحاجر الخالية من الحدقات، واللون.. واللون!». تأملت ألوان اللوحة وعيني «جيان» الفارغتين من نونيهما، وفكرت في اللون؛ العلامة الروحية التي تلمع في العينين. اللون.. أو ذلك القوس اللانهائي في كل نفسٍ من الغيب. اللون.. أو المقادير كاملةً تبرق في الحدقات. اللون.. أو أنه المرء في عينيه قصة أقداره كلها؛ حيث يعيش ويحب ويتألم ويخسر ويحلم ويتعذب ويشتم ويغني ويكذب ويخون ويضحي ويخلص ويرغب ويستحي وينتقم ويجبن ويقبل ويدبر ويموت ويحيا.. حتى تنتهي الروح ويصير الجسد فتيلاً ذابلاً!

أدارت ظهرها بالطريقة نفسها لكل هذا التعب كي تنام. حدثت نفسها أن يوم غد هو موعد عودة الغريب الشهرية المعتادة، كان في داخلها بعض الفرح وبعض القلق.. تخيلت أنها فجر يوم غدٍ ستقف في شرفتها وستتابع الغريب، وفي جيئته

هذه ستخلق الصدفة الثانية. كانت مصممةً على كل شيء، لكنها كانت تفكر أيضاً «ماذا لو لم يأت غداً، ماذا لو لم يعد هذا المجنون أبداً»!!

في فجر اليوم التالي كانت ماريا بشرفتها، تنتظر..

تنتظر!

ملحق باللفائف

تنبيهان عند فكّ أي لفافة:

* مجرد تنبيه نمطي، يقوله كبار السنّ: لا تضع أيامك على الأشجار التي تزهر دائماً، ستكون في متناول الجميع، ولا تضعها على الأشجار اليائسة..

يوماً ما لن تكون أكثر من كومة حطب!

* تنبيه موسمي:

حين تقرر أن تكتب اسمك على الأوراق الأشد خضرة في شجرتك، لا تنس أن تلك الأوراق بالذات هي أول ما سيسقط عندما يأتي الخريف!

١

آخ! يا هذه الليلة الهاربة من ليالي إبريل..

خذوا كل شيء، لكن اتركوا لي عزلتي بهذا الليل الذي هربت فيه، فحماني من القتلة!. أفكر.. كيف خطرت فكرة الليل ببال هذا الكون. لعلّه منذ كان الليل يقف وحده عارياً في الكون، خالياً من الكواكب والوعول والبنّ، وقبل أن يعرف الليل عدد المجرّات والوصايا، وقبل أن يخطر بباله أن أشياء هائلةً ومهولة ستتوالد منه، وأنه سيصير بئراً مقلوبةً في السماء يسقط منها العالم.. في ذلك الحين البائد لم يكن يفكر الليل بالنظر إلى نفسه، ولم يفهم حتى ما معنى البصر ولا المرايا وصفحات الماء، وهكذا لم يخمّن ذلك الليل اليتيم أبداً شكل جسده الأسود، ولا كيف هي سحنته.. كان يظنّ أنه مجرد فكرة، وذات وهلةٍ من يوم قديم.. ولد الحنين، وحينها وفي تلك الوهلة الخاطفة منه، شعر الليل أن شيئاً ما يحدث لأول مرة، فالتفت فجأةً.. وكان أول ما وقعت عيناه عليه: عينا امرأةٍ كانت تنتظر وتبكي بحرقة، ثم رأى سواداً حالكاً، ممتداً حتى آخر حائطٍ في الكون.. لكنه لم يتوقع أنه كان يرى نفسه. لم يفهم ذلك فوراً، لم يفهم الليل أنه كان هو تلك الحلكة المبلولة،

وعندما حدّق أكثر وأكثر، وتحسس جسده من جميع الجهات، فتح فمه لأقصاه، ثم صاح في وجوه الرجال والحنين والنسوة: هذا أنا.. أنا هو الليل!

يومها.. رأى الليل في صميم جسده أشياء كثيرة، لا تحصى أبداً؛ رأى عدداً من المذنّبات والنيازك الهائمة في الفضاء، ورأى دخاناً كثيفاً يخرج من هامته، ولمح وعوداً وروائح شعراء لم يسمع بهم أحد، واقترب أكثر فميّز مناديل ممزقة بحنق، وفلاحين غاضبين، وجبالاً كاملةً من المطر، ومحاربين ينزفون بصمت، ورأى أغنياتٍ من الحنطة والوديان، ويتامى يركضون هنا وهناك. لقد رأى الليل في جسده أشياء كثيرة وكثيرة وكثيرة، لكنه أيضاً رأى طريقاً من الطين ينتهي إلى قريةٍ فقيرة، وفي منتصفها كان يمشي رجلٌ نحيل، كان حزيناً وغريباً، ويغني بلا اكتراث!

نعم.. كان فيما رآه الليل في جسده؛ جسماً مهترئاً ومليئاً بالندوب والكدمات، جسماً معذباً، حتى كأنه لم يكن في الأصل يشغل مكاناً ولا زمناً ولا حجماً.. كأنه كان ثقيلاً على هذا العالم لدرجة أنه لم يحتمل أثراً لقدميه.. وربما كان أشدّ وجعاً من أن يحجز له مساحةً من الذكريات، وحكايا مثيرةً وسنين كالآخرين.. لم يكن له أن يحصل على أيٍّ من هذه الأدوار المتشابهة، فاختار أن يكون خيالاً مؤلماً، وإن كان لا بدّ أن يترك أثراً فقد ترك ما يشبه حرْقاً بشعاً وغائراً في وجه سيّدٍ شديد الثراء والسمنة.

٢

اليوم في ساحة القصر الرئاسي في روما رأيت أحدهم وقد خلع قميصة الداخليّ وكوّمها حتى صارت كالكرة في قبضته.. ورمى بها ناحية تمثال الفارس الروماني الضخم في وسط الساحة لتعلق بيده. توقعت أن تقبض عليه الشرطة، لكنني فوجئت بالصفير والتصفيق له من حولي!

كنت قد رأيت الرتابة الملعونة تحيط بكل شيء، فكأنما ساعدني كل شيء لهزيمتها بخديعة لم أتوقعها. ألا يحدث فجأةً.. أن نشعر أن شيئاً سحرياً خدعنا بلذّة، وأخرجنا من وقتنا المتبلّد، وقلب كل شيء، وأعاد إلينا حسّنا بوخزةٍ خاطفة؛ أنه رمانا بكل تلقائية في محض خدعته الفاتنة.

أحب كل خدعة تطوّح بنا دون عمد، دون نوايا رديئة، تلك الخديعة الحلوة التي تضيء كالبرق، الخدعة العبقرية التي يتبيّن فيها الواحد منّا، وبعد عبورها أن نشوتها داهمته، فكانت أسرع من تحسّبه، ومرّت وهي فوق تخمينه.. الخدعة التي لا يمكن أن ننظر إليها بغير عينين مشدوهتين وفم مفتوح، التي تخرجنا صدمتها وفتنتها عن طورنا فنصيح بسِبابٍ حَميم أو صرخةٍ حادة، أو أن نتلعثم ونحن نصرخ «اللّه.. اللّه»..

الخدعة التي تلوي قلوب الناس بعفويةٍ مفرطةٍ، وهي غير عابئةٍ بما فعلته بهم.

أحياناً تجيء الخدعة بأغنيةٍ غير متوقعة، في وقتٍ غير متوقع.. أو لمحةٍ من كائن جميل استغرقت ثواني ثم تفتّت كالغياب، أو ربما جاءت الخدعة برائحةٍ تقذف بي للوراء لسنوات بعيدة، حيث تهمس.. «هل تتذكر؟!».

وتجيء خدعة ما فأتخيّل أني رأيت جسد الوجود بدقة وهو يتحرك ويؤدي دواره بهذه البراعة.

يا ربي!

لعلّ الحقيقة التي يؤمن بها كلٌّ منّا هي خدعته الخاصة.. هي دائرته العميقة، وأداته التي يستخدمها ليتعرف على خبايا المجهول، وما يراه من العلامات والكون.. كل الكون، وما فيه من الأفعال والانفعال والعدم.. لكن — ويا للعدالة — لا أحد منّا يملك اليقين. الإيمان واليقين لا يلتقيان!

٣

مات محمد الماغوط.. وفي هذا المكان لا يكاد يعرفه أحد.. يا للخجل! ومات اليوم محمود درويش، وكلهم يعرفونه هنا، لكنهم لم يطلبوا منه أن يأتي ليسمعوه، ولو لمرةٍ واحدة.. يا للخجل! واليوم مات غازي القصيبي، فلا سامح اللّه الموت.

حسناً! إذا مات شاعرٌ في مكان ما من هذا الوجود، ماتت في مكانٍ آخر شجرة، وتساقطت أوراقها قبيل الفجر. إذا مات شاعرٌ انطفأت نجمةٌ، وتخاصم حبيبان، وضاع خاتمٌ، وأصبحت الدنيا أقلّ.. إذا مات شاعرٌ أُوصدت نافذة، وبكت خلفها الفتاة والسقف والوسادة، وإذا مات شاعرٌ تنسى القهوةُ المواعيد، ويعتذر الطلّ من الزهرة، ولا يلتفت الصبح إلى وجه الحمامة، والحمامة لا تقف على طرف السور، ويمرّ الغروب متثاقلاً ومقطباً حاجبيه.. وإذا مات شاعرٌ غصّ بنغماته الناي، ويرجع الشتاء أشد كآبة. إذا مات الشاعر تسكت صفّارات الليل، وتتراءى خيولٌ برية على جانبي السماء، خيولٌ يقطر عرقها على السحب.. تركض وتبكي، لا تتعب، لكنها تتوقف فجأةً.. وتصهل وترفع قدميها بغضبٍ وأسى، ثم تركض وتبكي من جديد، ويقطر عرقها على سحابةٍ أخرى من جديد!

في القرى.. لا ينام الشاعر في الليل، يبقى كالظمأ يحرس

البئر والحزانى، ويقسم للجافلين أنه لن يفزعهم، وأنه لن يحول ما بينهم وبين الدلو.. وفي القرى أولَ ما يتمتم طفلٌ بالأغنيات والشعر تأتي الغيمة وتتمايل السنبلة، وترى النساء تلك الليلة أحلاماً غريبة، ويستيقظن وفي أكفهنّ الحنّاء.. وأول ما يولد الشاعر يصيح الرعيان، وتتسع الأرض أكثر. أول ما يولد شاعرٌ.. تسهر البساتين ويفرح الكهول، أمّا الظالمون فيحدقون في وجوه بعضهم، ثم لا يجدون في أفواههم ألسنة!

إذا مات شاعرٌ.. نامت الصغيرات خائفاتٍ، وصرخ الجفاء، وتقافز الجدب، والكراهية، واشتكت صفارة الليل من الوحشة، وقالت الهموم في وجه الخلائق «أنتم الآن وحدكم!».

ويموت الشعراء.. يذهبون واحداً واحداً دون أن يخبرونا ما هو الشعر، دون أن يخرجوا من صدورهم الورقة الأخيرة التي تركوا فيها السرّ، وكيف كانوا يقولون الكلام، وما هو ذاك الإشعاع الحارّ الذي يلوّن الكلمات، ويضيئها كما تفعل الكهرباء.. يذهبون واحداً واحداً إلى هناك، حيث الموت نصّهم الكبير.. النص الذي يواجهوننا به، يرمونه على ملامحنا ثم يخرجون بهدوءٍ وحزنٍ قبيل الفجر، كما يجدف الغريب الواقف على حافة القارب بصمتٍ وجلال، ويمضي بعيداً، شيئاً فشيئاً باتجاه الضباب.. يدير لنا ظهره ويسافر إلى قلب الموج. الشعراء يموتون عادةً قبيل الفجر!

— هل مات اليوم شاعر؟

— حسناً.. إذا صليتم عليه، وقبضتم على أصابع يده لآخر مرةٍ، فلا تغادروه حتى تقرأوا شيئاً من كلماته، لا تتركوه وحيداً!

٤

أعرف رجلاً أعرج يعمل سائقاً لشاحنة كبيرة، اسمه «خيري».. وحين ينزل من شاحنته ليمشي يصير كثير الوقوف. يملأ صدره بالهواء، ويمد عنقه عالياً، ويتعالى على نفسه وعلى الناس. أدري أنه يشعر بكماله حين يستقيم على قدميه، ويظهر كأنه يكره الدروب والطرقات.. لكنه لحظة يخلو بنفسه ينظر إلى رجليه ويمقتهما، وينتقص جميع الماشين وكل الشاحنات..

وأعرف امرأة هشّة ومهزوزة، اسمها «علوة»، لكنها حين تغطي وجهها، تستطيع أن تقول كل شيء.. حتى إنها قادرة على أن تنتزع ما تريده. علوة قبيحةٌ جداً، طالها حريقٌ قديم، فتساقطت خصلاتها، وتكرمش خدّاها، وبقيت لها عينان جميلتان، لا أكثر..

وأعرف رجلاً بشاربٍ ضخم وعضلاتٍ صلبةٍ، وقميص متعرّقٍ ولاصقٍ بصدره، اسمه «إمام»، لا يكفّ أبداً عن النظر لشطبٍ بارزٍ في جبهته، هذا الشطب له حكايةٌ مهينة. «إمام».. كل يوم يؤدي تمرينات جسده بحماسٍ أكبر فيزداد ضخامة.. وقبل أن ينام ينظر للمرآة بقهر، وفور استيقاظه ينظر للمرآة بقهر، فيرى الشطب من جديد، وتكبر عضلاته أكثر.. أكثر!

«خالد».. لا يشعر بقيمته، يكذب دون حاجة، يبتذل نفسه بمديح الأقوياء، ويشعر أنه لم يجد موضعاً بعد. يبالغ في أناقته، ويحرك يديه ورجليه بطريقةٍ آلية، يتذكر سخريةً جارحةً تلاحقه من سنين طويلة. لا يتحدث عن غير الأخلاق والفضائل، وفي خفاياه يتمنى أشياء شاذّة وقذرة. يضيّق بطرقات الناس، ويؤذيهم في أرزاقهم، ويعيش في قدرٍ فاسد وبيتٍ لا يريده. زوجته تخرج لسهرات البغاء وهو يعرف ذلك دون اعتراض، تسمي نفسها «رحاب» وقلبها محشورٌ بالعشاق والعابرين. هي من ناحيتها شديدة التعاسة، تقول لنفسها إنه لم يكترث لها حقيقةً ولو رجل واحد. تسيء إلى ابنتها التي تتقن لغتين وتنام مبكراً ولم يلمسها غير الذي تحبه ويحبها. قبل أن تخلق ابنتها تلك، أخطأت «رحاب» في قول عبارةٍ بسيطة بغير لغتها. تضاحك الجميع، ومنذها وفي جوفها شعورٌ كامنٌ بالخيبة.

يا هذا العوز النفسي!!

٥

اليوم ماتت امرأة مسنّة في حيّنا، ليس في حياتها أية خطايا.. مسكينة المرأة التي ليس لها خطايا! رأيت أبناءها.. وكانت صدورهم بلا أضلاع ولا إرادة، وموت أمهم قد ترك في عيونهم رضوضاً وكدمات لا تشفى.. لا يريدون التفكير أنه لم يبق من صوتها الذي ذهب غير وخزٍ حزينٍ في الذاكرة، ولا شيء من عينها غير لمحةٍ خائفةٍ، رمتها على وجوههم قبل أن تنصرف، رمتها بتعلّقٍ وعتب، وهي في طريقهم إلى النسيان والوحدة!

والدتهم كانت في التسعين.. لا تملك قصة حبٍ واحدة، ولم تخرج من واجباتها حتى جاء الدهر الصعب — كعادته نهاية كل عام — يلفّ عباءته السوداء على ساعده، وينظر مليّاً في السماء، ثم ينهض، ويتأكد أنه قد أخذ ما يريد. يتحسّس جيوبه المعبأة بالموتى، ويشيح بوجهه الرمادي، دالفاً مع الباب، بظهرٍ عريضٍ ومشيةٍ متثاقلة. هذا الدهر القاسي كل عام، يخرج منديلاً أبيض، ويبسطه على ركبته، وينصت لكلمة مقدسةٍ: «أمي».. وكلما سمع ظمأها ووحشتها في مكانٍ أعلى من الآخر في هذا

العالم.. مدّ يده، وسحب تلك الروح المسلوبة من الحكايات، وراح يجمعها روحاً روحاً، من هنا وهناك، يكوم الأمهات في منديله واحدةً فوق الأخرى حتى يمتلئ، ثم يطير إلى المجهول دون شفقة.

٦

أنت شاعرٌ مؤلم.. فلماذا بكيت أيها الملتحي؟!

طفلك صار رجلاً.. هل توهمت أنك خالقٌ ليس له ضمير، أم بكيت لأنك شاعر يؤلمه قلبه؟!

أفهمك أيها الأرمل الأسيان.. أفهمك لأني أدرك جحيم الكلمات التي فيك، الجحيم التي جعلت منك خيالاً مكركب الرجاءات والأيام، ليس بيدك غير سهم ملفوفٍ بالعناد والمجهول، وحياتك داخلك؛ ما بين مفرّق رأسك حتى آثار قدميك. أراك كم تتعمد أن تجعل لأوجاعك دخاناً وسهراً وقليلاً من البكاء المكظوم والوسائد!

مرةً.. وفي سهرنا القديم ذاك، تجلّت في جباهنا شجرةٌ، تقول لأختها: «هات الوقت وادهني العابرين بالظلّ، وكلما استلقى تحتك شاعرٌ مُجهدٌ فهزّي بروحك عليه».. نسيت؟

اسمع..

الشعراء، الذين دبّوا على الأرض، كانت كلماتهم حين تسقط على صخورها ترنّ كما لو أن أغنيةً كبيرةً ستنبجس من أعلى جبل، ثم تسيل لتغسل الملامح المجروحة وتعيد تكوينها

من جديد، وكنا نقول بضحك ويأس «آه.. يا كلمتي، يا سيدة الخواتم والليل، تختبئين بين كلّ إصبعين من الطين والحلم!».

وقلت لي «لو أن أحداً منّا حدّث نفسه أن يفرك أرضه بيديه لتضوّعت بأرواح شديدة الطرب، لرأى بينها ذلك الشبح المنهك الذي يشبهه، ذا الشعر الكث والقسمات المحتجّة والروح الهائمة!».

وقلت لك «لن تنال مني بموتك. امض.. لا أريد أن أراك»!

٧

ذو القلب التائه.. جاء في يوم قديم قبل قرابة الأربعة والأربعين عاماً، ووجهه لحنٌ وأصابعهُ ريشةٌ، وصدّقهُ كان سوراً قاصياً من أسوار ضاحيةٍ حزينة، كأنما صوته كان مثل ركنٍ منزوٍ لانتظارٍ أو وداع، وفي جبينه وعدٌ وشموعٍ ملوّنة، أما عيناه فقد كانتا كلَّ السهر. كان قد اختار أن يمضي إلى سرّه الجميل.. أن يذهب إلى كوخ أغنياته ومزاجه في صمت.

ذلك الضّال كان قدره أن يُخلق وحده، وأن لا تسمعه غير حلكة الليل، أن لا يكون له غير نفسه.. فغنّى، وظنّ أن لا أحد سيسمعه، وتوقّع كثيراً أن لا أحد سيتذكره حين تتصايح كل هذه الحناجر من جميع الجهات. كان عاجزاً عن فهم أيامه.. لكنه أحبّ وحدته ومصيره!

أجل، غنّى بشفقةٍ وعذابٍ فسيحين، لأنه ربّما تخيّل أن رأس الحب سيتهشّم.. غنّى بدمٍ حارٍّ وخائف. أفزعه جداً أن يصير المجهولون بلا أغنية، تمنّى أن يترك نبراته في قلوب هذا النوع من العطاشى بالذات، ولن يهمّه إن عرفه الآخرون أو لم يعرفوه، تذكروه أو لم يتذكروه. فحياته في عزلته، مستقبلاً نفسه ولا أحداً سواها، موصداً عليه بابه، وملصقاً صدغه بظهر جداره!

٨

أشيائي..

روائح تحرّض على الوثب، يخرج منها كهولٌ يفركون أكفهم ببعضها، ويذكّرون بعضهم دوماً بالجوع، العجائز الذين لا يسنّون أظافرهم بعناية، ولا يجربون أثرها جيداً حين تسنح الفرصة في ظهري، الطاعنون في آلامهم.. الذين لا يلبسون الأقنعة ولا يرمونني بالحجارة من خلف الكثيب.

وأشيائي..

قصص كثيرة، وتاريخ ليس للكتابة، والطرقات، وبيوت الطين، وأعراس القرى، وأناشيد الفلاحين، ورائحة السقاء والتربة والثمر، وموتى لا يجدون من يكتب عنهم، وحبيبان لا يتكلمان كثيراً.. حبيبان يخافان من الندم!

٩

أحبُّ يوم الأربعاء، لا أذكر أني توقفت مرةً عند هذا الحب أو تأملته، ربما لأنه كان يمثل في داخلي طعم الفكاك من شيءٍ ما، لست قادراً على تحديده بدقة. الأربعاء.. هنا يعني الزيارات، والركض عصراً مع الأقارب وأبناء الحي، ويعني أن أبي سيأذن لي بالسهر حتى الثانية عشرة. كان هذا أبعد ما أتمناه؛ أني لن أكون في فراشي بعد أن أصلّي العشاء فوراً!

١٠

يقولون إنه يسمع صوت الماء تحت الأرض. يسمّونه «حيّان المِسمّع»، وكلّما أراد أحدٌ أن يحفر بئراً في مزرعته هرع إلى «حيّان»، يسأله عن صوت الماء. ولم يكن أحدٌ من أهل المكان ليستنكر هذه القدرة الرهيبة لديه، لأنه منذ كان طفلاً وهو يوقظ أمه في الليل فزعاً من الأصوات التي لا يسمعها أحدٌ سواه، وعندما كبر قليلاً صار يمشي بين الحقول، وفجأةً يرفع قدميه، وعندما يسألونه «ما بك؟» يجيبهم أنه سمع صوت الماء تحتها، ثم جرّبوا مرةً أن يحفروا الأرض تحت قدميه، فما كادوا يضعون أيديهم في الطين حتى انبجس الماء، كأنه كان ينتظر أذن «حيّان» منذ بدء الخليقة. من ذلك الحين وهو سيد الصوت والماء في قريته، وهكذا عاش حياته. لكن «حيّان» صار الآن كبيراً جداً، صار كبيراً للحد الذي فقد فيه سمعه، صار يتيماً من الأصوات، حتى إنه عندما يرى نبعاً، أو عندما يضعون أمامه قدح ماء.. فإنه يحدق فيه قليلاً وسرعان ما تقطر عيناه عليه. لقد صار «حيّان» وحيداً جداً، لا يسمع صوت الماء!

في قرية «حيّان» أحبّ الأطفال الصوت، وحفظوا نغمة الطير والمطر، وعندما يتألم أحدهم من شيءٍ من دنياه يهرب لوادٍ أو

مغارة أو رأس جبل. لقد تعلّم الصغار في قرية «حيّان» نوعاً من الموسيقى لا يفهمها سواهم. كانت الأصوات طريقتهم في الوجود.

وفي أقصى الأرض، هناك في اليابان.. «مسمّع» آخر يشبه «حيّان»، يسمّونه «كيتارو»؛ عليه هيبة السَّحرة ويظهر وكأنه أحد ملوك الجن. «كيتارو» هذا قال مرةً.. «أعرف أن الموسيقى تستطيع أن تغيّر أيَّ شخص آخر، لأنها غيرتني». كيتارو وحيّان، وجدا السرّ الذي يختبئ في كهوف الجبال والغابات، ويسيل في الوديان والشجر والبساتين ويمتد عبر كثبان الرمل، ويرعش في الموج والصواري. لقد استطاعت نفسيهما أن تقبض، في لحظة شاردةٍ منها، على الغيب والإشراق، على أشياء لا تقبل التذكّر. كيتارو قال: «أبداً لم أتلق أي تعليم في الموسيقى، فقط تعلمت أن أثق بأذني ومشاعري»، وحيّان قال أيضاً: «إن ربي خلق قلبي في مسمعي».

الذين جاؤوا بالغناء والموسيقى إلى العالم لم يتوقعوا حجم الهدية التي منحوها إياه، وأيضاً لم يتخيلوا أبداً هذا المدى من الألم الذي فتحوه على مصراعيه في وجوهنا.. كل هذا التاريخ من الآلات والأصوات.. لمداراة عجزنا عن قول ما نريد حين تنال الأيام منا فوق ما نطيق الكلام عليه. ولا أدري أيهما حاولنا نحن بني الإنسان أن نفعل أولاً، هل غنينا قبل أن نكتب، أم كتبنا قبل أن نغني؟ أظننا تكلمنا، ثم غنينا، ولم نكتب إلا بعد أن مرّ وقتٌ طويل جداً على الكلام والغناء، وحتى حين كتبنا بقينا في عجزنا، وفي تمام حاجتنا للغناء!

١١

سامحوني يا كل الذين تركتهم..

ها أنا أمشي على قارعة التيه،

يداي مخبأتان في قلبي، ورجلاي مليئتان بالحنظل والشوك..

أعزل من الآخرين والأشياء،

وقدّامي ساحةٌ محمومةٌ بالمقاهي والساهرين!

* *

سأل صاحب المقهى شاباً عميق السمرة، يأتيه كل يوم: «منذ عام وأنت تأتي لثلاث ساعات هنا. هل تنتظر أحداً ما أو شيئا ما؟».. وأجابه سريعاً: «لا أعرف»!

وفي مقهى آخر، حيث يتعالى الضجيج حتى الصبح، مأهولاً بالفارّين من النهار.. يظهرون من بعيد وكأنهم جميعاً لقطةٌ صاخبة في شاشة سينما، يتحرك فيها فيلمٌ متناقضٌ وغريبٌ، حزينٌ ومضحكٌ، مخيفٌ ومسلٍ وجارح و.. إلخ، هذا كله في وقت واحد.

قال عابرٌ ضائع.. «أجزم أني أنتمي إلى طريق كبيرة تمتدّ

على كوكب الأرض من أقصاه إلى أقصاه، طريق باهتة اللون والوقت، لا أعرف أين بدأت ولا أين ستنتهي، وأنا على قارعتها، على قارعة المجهول.. والملايين تقضي أعمارها فيه!».

١٢

رجلٌ صلب..

توشك الأعوام التي تمضغ كفّيه أن تنطق لتتوسله بعتبٍ، أن يخرج رأسه قليلاً من حرب الليل، كي ينام خالياً من عنائه ولو لمرةٍ واحدة، لكنه حين خفض عينيه لثانية، داهمته هواجسه التي يصارعها بالصمت والتحديق. يهجس ذلك الصلب بالحنين الشرس، الذي يعبر إلى قلبه كلما هاجت رائحة الشجر الذي زرعه بيديه ورافقه حياته يوماً بيوم.. الحنين الذي يصادفه في الطرقات التي طالما مشاها. لم يخطر بباله أن يوماً سيأتي وتذهب الطرقات.. لكن الحنين ما زال يقفز في قلبه بالأصوات التي مسّت روحه واطمأن إلى نبرتها وصدقها.

يهجس بالندم المرّ منذ ترك لسطوته أن تغرس نابيها في النفوس الهشّة التي ضايقته، ويتمنى لو أنه تأمل قوّته قليلاً.. لو أنه ترك لمهابته أن تلاحقهم طيلة أعمارهم، ولو أنه بساعديه الكبيرتين لم يهشّم رؤوسهم الصغيرة. يهجس بالحب الذي أعرض وصرف عنه وجهه مراراً. كان قد تخيّل دوماً أن الحكايات اللينة تنال من جبهته.. يهجس بالحب ويفكر في الأجفان التي حلمت به، ويعتذر لها واحداً واحداً.

يهجس بالمصائر التي تكبر في ظلّه، وتنام بكامل طمأنينتها بين حاجبيه، ويهجس كيف ستفعل هذه الأرواح الكثيرة من حواليه حين تطلق صوتها يوماً لتناديه.. فلا يجيب! يهجس بخجله من وجوه رفاقه الذين سبقوه إلى الطين، ويودّ لو رجعوا ليذكرهم أنه هو الذي كان يفتح الأبواب قبلهم، ويدخلها قبلهم ويواجه مقاديرها قبلهم.. لكنه لم تكن له من حيلةٍ في هذا الباب كي يوصده.

يهجس بالكلمات اللاصقة في جبين الذاكرة؛ هذه الكلمة سمعها من والده، وتلك الكلمة سمعها من خصمٍ نبيل، وكلمةٌ سمعها من صديقٍ قديم.. وكلمةٌ أصابته دون أن ينتبه.. سمعها من عابرٍ رآه لمرةٍ! يهجس بالظنون التي قضمها العمر ولم يتيقن مما يختبئ في جوفها، ويعرف أنها مضت إلى حيث لن يقوى عليها.. فقد غرقت تماماً وهي الآن تقهقه في قاع الفناء. يهجس بالخيبة التي تتراءى له كلما نظر إلى الحصن الذي بناه لبنةً لبنة، ثم لا يتراءى له من يجسر على الموت دونه من بعده. يهجس بحصنه المخضب بتعبه وأحلامه، ويطلب من الله أن ينقذه.

يهجس بموته، ويقسم بالله أنه لم يخف من الموت أبداً، لكنه عاش وهو يخشى أن يخرج من هذا العالم بطريقةٍ لا تليق به. يخاف أن يمضي محاطاً بالشفقة وهو الذي عاش عمره كاملاً، كسورٍ شاهق.

يهجس أن ليس سهلاً أن ينام الرجال الذين عاشوا حياتهم كحرب!

١٣

رأيت رجلاً يبكي على أمه. كان كبيراً، لكنه لم يكن ليأبه بمن يراه. بكى مثل طفلٍ صغير..

حتى أنا ماتت أمي. لم أبكها، أريد فقط أن أرى وجهها مرّة!

في أول يوم يكون فيه الرجال الكبار دون أمهاتهم، يدركون أنهم لن يجدوا فرصةً أخرى ليتذكروا صراخهم وقصصهم الأولى بوضوح، ولن يتذكروا شكل ثيابهم القديمة جيداً، ولا حتى طعم الحليب ولا رائحة البخور، ولن يتذكروا للأسف عدد أسنانهم، التي اقتلعوها وركضوا بها نحو أمهاتهم، فرحين بتلك الانتصارات الصغيرة.. لم يتخيلوا أبداً أن شيئاً ما، شيئاً اسمه «الموت»، سيقتلع هذه الذاكرة، وأن الأمهات اللائي كنّ يفرحن بتلك الشجاعة الصغيرة، سيلحقن بتلك الأسنان المخلوعة، وأنهن سيذهبن معها في الغياب، وأنهن سيرقدن بينها إلى الأبد.

وفي أول يوم يطلع فيه الصبح على الرجال الكبار وهم بلا أمهات، يحسّون بشيءٍ غريب، ليس بوسع أحدٍ أن يشرحه، ويحسّون أنه لم يعد هنالك شيءٌ أو أحدٌ يحفلون به، وأن مهابةً

إنسانيةً محضة رحلت عن نفوسهم، وأنهم صاروا منذ ذاك الصباح وهم الرجال الذين لا يستريحون.

أعرف ملعوناً قال لي مرة إن أمه ماتت وهي تصدّ بوجهها عنه، فصديت بوجهي عنه من ذاك اليوم!

أتخيّل أن الطين الذي خلق اللّه الإنسان منه، قد قال في سابق الأزل: لا تثقوا بالذين لا تحبهم أمهاتهم، لأنهم مثل النبتة المعلقة في الهواء، المخلوسة من جذورها، لا يمكن أن تورقَ أغصانها ولو سُقيت بوديان الأرض، ولا يطلع في نواحيها الثمر ولو نامت القرى والفلاحون تحتها أجمعين.

أمي تحبني!

١٤

مشاكلي..

— كلما بحثت عن حقيقة الأشياء، وكلما تخلصت من نعيم أوهامها.. فقدتها. وكلما حاربت أكاذيب البشر أكثر فأكثر، وجدت نفسي معزولاً عن الحياة والعالم أكثر!

— لا أستطيع التخلي عن الحبّ، لكني لا أثق به. الكلمات الجميلة والقاسية.. كلها تؤذيه.

— حياتي كلها في الليل.. ومخلوقات الليل تعمّر طويلاً، رغماً عن أنف الطب، هل سأبقى على هذه الأرض أكثر؟ يبدو الليل أكثر انسجاماً مع الكون.. أما الذين يحبون النهار فإن الشمس ستطلع يوماً ما ولن يكون باستطاعتهم رؤيتها.

— الأحلام الكبيرة التي في نفسي تجعلني أعمى. لا أتوقع في داخلها شيئاً عن الأيام عندما تفقد صوابها! أنا غير قادرٍ على الحياد، روحي متطرّفة من أصل خلقتها.

— لا أثق بأحد. الثقة الواسعة بين أيِّ اثنين تجعل فرصة الإحساس بالخيبة أوسع، وكل حكاية لخيانةٍ كبيرة لا بدّ أنها جاءت من ثقةٍ كبيرة!

١٥

ماذا عن الوهم؟

يخطر ببالي شيءٌ خاطف، يمرّ سريعاً دون أن يستغرق جزءاً من ثانية، ولأني، كأي إنسان، مخلوقٌ معقد التركيب، وفي أعماق نفسي عوالم مجهولة، لا نهاية لها، فإن هذا الشيء الذي خطر ببالي، في جزءٍ من الثانية، يلبد هناك في أقصى الذاكرة، ينام هناك ويبقى احتمال استيقاظه وتذكره في أيّ حين مفتوحاً طول العمر.

أظن أحياناً أنني أنسى. أبداً أفهم أنه لا شيء للنسيان. الآن لا أتذكر هو تلك الأشياء الدقيقة جداً التي غاصت عميقاً في بئر معتمةٍ من ذاكرتي الهشّة، لكني إذا غضبت في لحظة ، يقفز شيءٌ من تلك البئر، كنْت من قبل قد رأيته أو سمعته أو شممته أو لمسته أو حتى تخيلته، أو. . أو حتى لو كان مجرد خاطرٍ صغير عبَر داخلي.

في لحظة قديمة. . لاح بذهني خاطرٌ — كان قد مرّ بي يوماً ما — لكنه هذه المرة صار أكبر قليلاً؛ استغرق من العمر ما هو أكبر من جزء من الثانية. في لحظة أخرى يعود هذا الخاطر ويكبر أكثر، ويستغرق من الوقت أكثر، وفي لحظة جديدة يكبر ويكبر،

ثم لحظة ولحظة ولحظة حتى يصبح ذلك الخاطر الذي مر يوماً ما في جزء من الثانية. . هاجساً لا يفارقني، ثم يكبر هذا الهاجس أكثر فيصير شكلاً للحياة. . وأخيراً يصبح مصيراً كاملاً، وهو الذي كان أول الأمر مجرد خاطرٍ لم يستغرق أكثر من شيء يذكر. والآن لا أكاد أعرف شيئاً عن الأشياء التي صاغتني على هذا النحو!!

أبداً أبداً، لا شيء للنسيان. . كل جزء من ثانية مهيأً ليكون مصيراً وعمراً كاملاً!

١٦

آخ.. يرعبني الوهم!

أدري أنه عندما يستسلم الإنسان للوهم فإنه يزوّر كل شيء في حياته، من حقيقة اعتقاده بمعنى وجوده وقيمته ومدى بؤسه ورضاه، وحتى إحساسه بطعم الكلمات في فمه. سيقول كل من ينجو من الوهم: «عندما استيقظت من الوهم، وخرج رأسي من تحت قبضته الرهيبة تغير طعم كل شيء في الحياة، حتى جرعة الماء.. لقد عشت ظامئاً كل تلك السنين!»

يا لهذا الهلع!

١٧

ولا أحد يعرف من أي وادٍ تأتي ريح النهايات، لكن ما دمت حيّاً فسأفتش عن شيء يملأني. أحب الوديان وأظن أن في كل وادٍ مصادفاته وأسئلته الخاصة، ومن قلب هذا الوادي أرى حولي بشراً مهزومين في كل ناحية، ضعفاء في علاقتهم بأرضهم وفهمهم لوجودها، يغلب عليهم الكدح المضني.. أرى وجوهاً سئمت وجودها، تفتش عن حياةٍ بديلة، عن ذاتٍ بديلة، عن وجدانٍ بديل، عن أرضٍ وحلمٍ ومجتمعٍ ووادٍ بديل.. وجوهاً لا يلزم لاختطافها وتشويهها والتحكّم بأرواحها وأجسادها كالدمى، غير أن تُرمى على أدمغتها الخاوية تلك الأقاويل المليئة بالوعود والأحلام والأوهام والبطولات!

١٨

من فوق سريري في المستشفى أكتب. قبيل ساعات أخرجوني من غرفة الإفاقة، لا أستطيع النطق. أصلاً لا أحتاج لأي كلام. أريد أوراقي وقلمي، وقد جئت بها معي. .

خرجت فجراً، وركبت سيارتي في طريقي إلى المستشفى. موعد الجراحة الثامنة صباحاً. . وبقيت أدور وأدور في هذا الفجر، وما أكثرها المرات التي لا يتسع لي فيها شيءٌ في الوجود سوى هذا الوقت بالذات! وصلتُ ودخلتُ المستشفى. أخذوني لغرفة العمليات. أذكر أني صرخت بوجه طبيب التخدير، ورفضت ترديد ما يطلب مني قوله. أكرهه، لقد كلمني مثل كاهن. أذكر أيضاً أني قلت للجراح «لا تشفق عليّ. افعل ما بوسعك» وضحكت!

الآن وبعد أن أفقت، وأنا ببعض تماسكي، أحاول استرجاع ما حدث. لا شيء يشعّ في نفسي غير تلك الساعة التي قضيتها فجراً. . كنت أطوف بالأشياء لحظتها وأنظر إليها كأني لن أراها من جديد. تلك الساعة الفجرية كانت صديقتي على الدوام، لكنها هذه المرة كانت سحراً غريباً، وهي التي بقيت صامدةً في نفسي إلى الآن، ولن أتحدث الآن عن غير هذا الشيء النبيل: الفجر.

يقيناً. . لا بدّ أن أول شيء لمس هذه الأرض، وحط رجليه عليها، كان مخلوقاً شديد الحميمية والوحدة. لم يكن له جسد، كان وقتاً له قدمان. نعم. . كان هو بذاته أول ثانيةٍ تقطر من جديلة هذا الوجود الليلي على تراب الأرض. . كان ذلك المخلوق ساكتاً ومليئاً بالانتظار، وكان اسمه «الفجر»، ولم يعرف حينها أنه الوقت الوحيد الذي أمكنه أن يسبق ضوء الشمس الخارق. كان هذا في زمنٍ بعيدٍ جداً، عندما كانت الأرض قفراً من الأشياء والرسائل والغبار. . ثم لا بدّ أن ذلك «الفجر» عندما أحسّ بدفء الطين تحت رجليه في أول مسّة، بقي واقفاً بمكانه لزمن، وقبل أن يبدأ أول خطواته على هذه الأرض تلمّس جنبيه، فوجد تحت أضلاعه اليمنى لفافةً شفافة. . فكّها فوجد في باطنها «الصوت» تحيط بها «حناجر» لا حصر لها، فرفع لفافته تلك في الجوّ، ونفضها في وجه الرياح. . وهكذا كان الفجر هو أول من ملأ الدنيا بالأصوات والحناجر. ثم تلمّس جنبه اليسار فوجد تحت أضلاعه اليسرى «الشعر» وحواليه «جباه» حرّة وقليلة، فسحب لفافته الأخرى من تحت أضلاعه برفق، ثم نفضها أيضاً في وجه الرياح والمطر. . وهكذا كان الفجر أيضاً هو أول من لوّن الدنيا بالكلمات والشعراء.

خطى الفجر خطوته الأولى، ثم مشى ومشى طويلاً، حتى تآلف مع الطين والجبال والرمل، وأحب الوديان والبحر والعشب الأخضر، واطمأن إلى القرى كثيراً، وصار الفجر وهو ينزل على الأرض كل يوم، كلما سمع حنجرةً تغني أو جبهةً تهمس بكلمة

شعر، أو مشت إلى أذنيه نغمة، تذكر مكانها تحت جنبيه، وضمّها وقال لها «أنت من جنبي». .

يغمرني الآن شيءٌ يقول إنه في لحظةٍ قديمةٍ قدم الحياة، تسللت كلمات أول إنسانٍ تألم إلى سمع الفجر، فأصاخ لها، ثم أعادها وكررها حتى حفظها. تذكر مكانها من أضلاعه، وميّز الجبهة الحرّة التي قالتها، ثم فتح عينيه ليرى من أي ناحيةٍ جاءت، فوجد رجلاً مختلياً بنفسه، وحيداً على رأس جبل، لا ينتظر أحداً أو شيئاً، وكان يجمع كفيه، وينفث فيهما بكلماتٍ غير مرتبةٍ ولا مقصودة. . كان هارباً بقلبه المحطم، ولا يعرف أي قوةٍ يناجيها في هذا الكون، والوقت كان فجراً. . هل كانت تلك الكلمات المجهولة أول شعر؟!

والآن. . وأنا على سريري، في هذه الحال، لا أسمع أي كلمةٍ منها، لكني أحسّ بها، وأكاد أرى جبهة الرجل الهارب التي تمتمت بها، وأشعر بفرحة الفجر.

وماذا أكتب أكثر؟. . لم أصطحب معي أي كتابٍ من الشعر. عند رأسي رواية «أرض البشر» فقط، ليسامحني الفجر، فأنا لم أخمن هذا الموت، ولا هذا البعث!

١٩

مرةً أخرى عن أول شاعرٍ بدائي. . تسللت كلماته إلى الفجر الأبدي؛ ومرةً أخرى من فوق هذا السرير. . رأيته! كان كما ينبغي على الماء أن يكون، وبالله ماذا يصلح للماء أن يكون، باستحالته جسداً وكلماتٍ، سوى أن يتخلّق في ذلك الكائن، لكني رأيته هذه المرة وهو كبيرٌ جداً في السنّ، كان مغموراً بغيمةٍ ناعمةٍ. . ولم أصدق أبداً من قبل أن الشاعر يعيش حتى عامه التسعين!

رأيته. . ولم يكن هذه المرة على رأس جبل، بل كان يثب وثباً في الجوّ مثل طائر العقاب حين يقفز من فوق قمةٍ إلى السماء. رأيته وهو يثب، وكأنه يخاف أن يكون في الأرض طرقات حياةٍ فاتنةٍ لم تقع عيناه عليها بعد. كأنه بكل يقينه يشعر أن الأصوات التي يسمعها في داخله هي الحياة التي يفتش عنها ولم يجدها. . ما زالت أمامه، ويدري أنها هي المصير.

لن أسأل شاعراً مسنّاً عن حياته ولا عن الماء. يكفي فقط أن أنظر إلى ملامحه. الشاعر. . هو ذلك النوع الفريد من البشر، الذين يحملون أيامهم وكل خطواتهم على جباههم، ووسط أحداقهم، وبين حواجبهم، وفي تجاعيد أصداغهم. . والفجر يوم

جاء أول مرة كان قد بذر الشعراء كحبات القمح في كل ناحية، وانتظر ثم انتظر.. حتى نبت ذاك الشاعر البدائي القديم. لم ينتبه له الفجر أول الأمر، لكنه حين جمع كفيه ونفث فيهما بأنينه وقلبه المحطّم أصاخ له الفجر، وعرفه فوراً، وعرف موضع كلماته من جنبيه.. ومنذ تلك اللحظة والشعراء البدائيون، الذين يجمعون كفوفهم، وينفثون فيها بكلماتهم وقلوبهم المحطمة، دون مبالاة ولا انتظار.. منذ تلك اللحظة وهم يشبهون الفجر، والفجر لا يميّز غير أنينهم!

رأيته — رأي العين — ذاك القديم.. لم يكن له الوجه الذي يحمله الآخرون جميعاً، وكان يعبر طريقاً لم يعبرها أحد من قبل.

٢٠

كان له طيفٌ محموم الملامح، هارباً.. جاء من إحدى القرى. يطيل النظر في الأشياء، ويحب أمه. يفهم الوديان كما تفهم الرياحين مداخل البيوت، ويفكر دوماً في الهاوية، ثم يتذكر أن شيئاً ما لم يقله بعد، فيتراجع ويغيّر جلسته فقط.

قال لي مرةً، وهو واقفٌ على شكل شجرة تين، بأن الأمكنة عند الفجر تظهر وهي أكثر الأشياء قدرةً على لسع الحياة النائمة فينا. قال إن الطبيعة لا يمكنها الحياد، فإما أن تكون جزءاً منها، ومن طباعها ونواميسها وحركتها، وإما أن ترفضك لتصبح مثل أي جسم مجرثَم وضار، تنبذك حتى التربة التي تمشي فوقها.

قلت له، وهو على شكل غدير، هل تشعر بنا الجذوع؟ قال إنها تقف على أطراف أصابعها كل مطلع صبح، ومتى ما وجدت روحاً تبادلها البصر والأسئلة، فإنها تغادر مادتها وتنساب إلى حواسنا. إن الجبال المصفوفة بجوار بعضها، على مد البصر، تبني شكلاً آخر لها فينا، وكذا تفعل الغيمة؛ تكوّر غيمةً مثلها بأعماقنا، والصحراء والبحر والغابة، وكل شيء كل شيء.. من لون السماء المزاجية جداً، وحتى القشّة التي تنفخها أنفاس العصافير، كلها تطبع شكلها الأزلي في جوفنا.

آه.. ليتني أعرف لماذا أنا مخنوقٌ وغاضب، وأحتاج.. لا أعرف ماذا أحتاج، إنني محزونٌ وساكت فحسب، وفي نفسي جوعٌ لغيب لا أفهمه!

أينه ذاك المجهول.. أينه؟

٢١

كنت أجلس على حدّ النافذة، بذلك الفندق الرثّ في لندن.. حينها هجم عليّ ذلك الطيف المجهول، كان بالغ السمرة، وعيناه واسعتان، وأسنانه شديدة البياض.. كان واقفاً في فراغ السماء، تحيط به شعلةٌ من لهبٍ جميل. رماني بشيءٍ في يده، لم أميّزه، لكنه أصابني.. ضحك من خوفي: «اسمع.. يبدأ الشاعر بالخيال والحلم، ثم يتعب كثيراً، وقبل أن يوشك على اليأس من الكلمات، وفي اللحظة التي يحدّث نفسه فيها بالإقلاع عن صوته، في تلك اللحظة العنيفة.. يبصر الرؤيا، وينفتح قدامه أفق من الغيب والذات، لا يعرفه سواه. حينها تتمدد روحه إلى أقصاها، وتنكمش نفسه إلى أقصاها.. تتمدد روحه في تفاصيل هذا الكون، ذرةً ذرة، وضفيرةً ضفيرة، وسماءً سماءً، وتنكمش نفسه إلى ريبتها وعزلتها ووحدتها، ثم يقضي حياته دون أن يثق بشيءٍ غير عزلته وغير الطبيعة، ولا شيء يؤلمه أكثر من كلماته التي قالها، والطبيعة التي رجع إلى سباحته اللانهائية فيها».. هكذا قال.

وجم الطيف المجهول طويلاً لكنه لم يذهب، وحين رآني خفت رماني مرةً أخرى بشيءٍ غامض، وأيضاً لم أدر ما الذي في

قبضته.. فنظرت إليه، ورأيته في قلب شعلته حانياً رأسه ويبكي، قال بصوتٍ ضعيف: «قل لهم ألاّ يثنوا أيَّ شاعرٍ آمن كل حياته بالرحيل عن رحلته، وإن كان لا بد من ذلك، فلا يصوّبوا أضواءهم ناحيته، كي لا يربكوا روحه. قل لهم فقط أن ينفخوا باسمه على مياه الجداول!».

.. عندما أوشكت على البكاء راح يرقص في السماء، وعيناه محشودتان بأهازيج شجاعة. حنجرته كانت بدوية ومفتوحة، وصوته الذي يشبه تطاير الحصى تحت القوافل، كان ينثر خيالاتٍ تشبه القطن في كل ناحية. كان متكئاً في أرجوحة معقودة من طرفيها في ناحيتي السماء، وكلما رآى خوفي اهتزّ كأسدٍ جائع، وتصاعد الغناء إلى جبهته.. وراح يحرّك رأسه يميناً وشمالاً، ومدَّ أهدابه حتى تصير مثل جناحين أسودين.

٢٢

على ضفاف نهرٍ صغير بجنوب فرنسا، والوقت قريب من الرابعة، وكل شيءٍ ساكنٌ هنا في تلك الضاحية، لم يكن معي شيء أو أحد. كنت مهترئاً وأفكر في حياتي وعلى أيّ نحو يمكن أن تكون نهايتي، ثم سخرت في نفسي من نفسي. قمت لأرجع لجدراني، وحينها لمحت رجلاً يجلس على ضفة النهر، كان مديراً ظهره ويوشك أن يسقط في الماء. قلت في نفسي آخذ بيده، كنت كلما اقتربت منه يقترب من الماء أكثر، لكنه لا يسقط. خشيت أن أقترب أكثر، فكرت أن أتركه وأذهب، ظننت أنني أحلم. فاستدرت بالفعل ومشيت، فسمعت ورائي همهمةً غريبة. التفتُّ فرأيت ذلك الأسمر المجهول في منتصف النهر، كان هو نفسه، بعينيه الواسعتين وأسنانه شديدة البياض.. قال: «الشاعر لا يملك في الأرض إلاّ ما يملكه الطير من السماء، وما الذي يملكه الطير من السماء غير جناحيه. أنت لا تعرف شيئاً.. لا تعرف أنه إذا أُصيب طائر في جناحيه فإن أول ما تنساه الرياح والأغصان والشبابيك، ولن يحيط به غير قطط الشوارع والغربان. إذا أُصيب الشاعر في صِدقه فإن أول ما ينصرف عنه الليل، ولن يهتم له شيء غير الباعة والكذابين.. آآخ! يتخيل الشاعر، لكنه لا يكذب».

صحت «من أنت؟».. لكنه اختفى!

هههه.. ذكرى ميلادي السخيفة!

باللّه ما معنى أن نكبر؟ ما معنى أن عاماً أو شهراً أو حتى يوماً مرّ من هذا العمر؟ لا أفكر في هذا السؤال بخوف. الموت ليس قضية ولا شيئاً، الموت حقيقةٌ وحيدةٌ تمنح الحياة معناها دون أن نعرف ماهيته.

ما يؤلمني أنني كلما كبرت ضاقت الهدايا. كلما كبرت اتسع القلق وانكمشت الأحلام، الكبر يعني أن أقول ما يجب أن يقال وليس ما أرغب قوله، أن أفعل ما يجب أن يُفعل وليس ما أرغب أن أفعله. كلما كبرت يعني أن يدخل الآخرون حياتي شيئاً فشيئاً، ويقضمون فردانيتها شيئاً فشيئاً.

ما زلت فرحاً بحياتي.. لأنني مشغول بالشوارع والأشياء وكواليس الحياة، وأستطيع المشي حافياً في أي مكانٍ من بلدي، أستطيع أن ألمس ترابه في أي لحظة.

اليوم كبرت عاماً.. أكره أن أكبر لأنني لا أريد أن يأتي يومٌ وأستحي مما أفعل. لا أريد أن يأتي يومٌ لا أستطيع فيه قول كلمتي.

مكائد فوق الكلام..

الصدفة.. المكيدة التي أخذتني إلى فخّها، أغرقتني في دهشتها حتى ظننت أنها معجزتي وخرافتي التي لا يملكها أحدٌ سواي.

أول مسّة.. مكيدةٌ من الجلد والعصب ونبضٍ أسرع. لمسة تشبه قدحة كهرباء غريبة، والصوت.. كان مكيدةً معلقة بأذني كقرطٍ خجول.

الشوق.. كان مكيدةً من اللهفة واستعداء الوقت. كان الشوق اضطراباً في حساب الزمن والإحساس به؛ إما أن يصير خاطفاً للحد الذي لا يكفي لإكمال حكاية، وإما أن يصير هرماً ودونما ذاكرة.

الرغبة.. كانت مكيدةً تشبه شيئاً يخرج من العتمة. يسيح في كل خليةٍ وشريانٍ وعظم. مكيدة تجعل جسدي يانعاً أكثر، وترقّطه بالبريق من كل ناحيةٍ. يصبح شعلةً شفافة تحركها نفخة، وتطفئها نفخة.

الأنا.. مكيدة السؤال، تُرجم به الخيبةُ على طمعِ الغريزة، فلا ينخدش الجسد، لكن شيئاً ما في الروح يطقطق فيه شرخ

صغير، ثم يكبر ويكبر، حتى يصير كسراً. أناي واحدة جداً، لكنها تقسم كل شيءٍ إلى اثنين.

الغياب.. كان مكيدة تعيسة في أولها، لكن الغياب نفسه صار كهفاً آمناً لا يصل إليه أحد سوى الحنين، والحنين.. المكيدة التي تعصر البطن والوقت.

أفّ! العناد.. مكيدة القارب الأخير. العناد الذي يسلخ عوالق أغنياتنا والكلام. العناد وحده يستطيع طعن الصدفة الأولى في ظهرها. يمكنه أن يشنق أول لمسة وأول صوت بحبلٍ واحد.. أن لا يترك لا للشوق ولا للرغبة أنفاً ولا فماً ولا عينين.

الوفاة.. الوفاة ليست مكيدة، إنها نقطة، أو شيء يشبه استيقاظاً مقلوباً، مثل أن أصحو من نومي بعد العصر، وقد نسيت أصلاً متى نمت، فأعتقد بسذاجة أني في الصباح، أو أنها — أي الوفاة — تشبه أني كنت في غيبوبةٍ ليس لها منطق ولا مبرر، فإذا صحوت قلت بصوت واضح «كنت نائماً»، وضحكت كثيراً من نفسي ومن الحلم.

٢٥

أغنياتي الليلة.. كل نبرة فيها تقول عن الجوع للحب الفرداني، الذي لا ينطوي على طرفٍ آخر، الحاجة للذات أكثر مما بين كل اثنين من دهشة.. الحليب الغيبي الصافي من الحاجات إلى آخر، الحب الذي تأخذ فيه كل المخلوقات مكانها.. يجعل المملوء به يأوي إلى فراشه وينام بسلامٍ كامل. الأغنيات والحب والضغينة لا يتسع لها صدرٌ واحد.

أغنياتي.. روائح الأمكنة التي عبرتها كل الهوادج والعرائس الجميلات والفرسان. تقول عروسة «إن الذي لا يستطيع أن يسمع ضحكاً أو آهاتٍ تركها حبيبان على صخرة أو بجوار نبعٍ أو تحت شجرة قبل ألف عام، فإنه لن يقدر على الغناء».

وقال رجلٌ قبل أن يعدو بعيداً بحصانه «إنه كما خلق اللّه صوت الخيول والسواقي، كما خلق صوت الرياح والمطر، وصوت الطير والنايات.. بنفس الروح والنكهة سأغني عندما أعود لقريتي».. ثم حدّق فيّ وخرّت من أنفه قطرة وقال «القرى ليست مطراً وسنابل فحسب، إنها أغنيات.. يا ألله دلني على حقلي»!

٢٦

رحت؟
جرحي سأتركه هناك
وراء ظهر الشفاء.
أسكت؟
سأسكت.. وفمي ليبق على يسار الكلام
اللّه يجزيك.. اللّه يجزيك!
وااا أماه،
يا آخر الحدقات.. وجمر الحليب،
ها قد سوّيت رأسي للحناء،
وفردت يدي للسيل بمنتصف الوادي
فردت يدي للسيل والطين
فأغرقيني بموتك حتى القاع!
رحت؟
اللّه يجزيك..

٢٧

أحتاج لأشياء، لا أفهم سرّ احتياجي لها؛ أحتاج لوناً شديد الزرقة، أحتاج مكاناً أو طريقاً كنت أمشي عليها كل يوم، وأحتاج لتفاصيل في لبسي في غرفتي وفي القصاصات — الأشياء التي أضعها في محفظة جيبي. حاجتي لا تستطيع القفز فوق ذاكرتي. قصاصة..

رأيت الفيلم وقرأت الرواية. لا لا، العكس.. قرأت الرواية ثم رأيت الفيلم، والفكرتان الأخطر، على الأقل في فهمي أنا، في رواية «العطر» لـ«باتريك زوسكيند».. الأولى، أن البطل احتاج لعزلةٍ كبيرة عن البشر، لاذ بالطبيعة، وأخيراً اكتشف أن جسده بلا رائحة، وأدرك أنه بكل الجرائم التي ارتكبها، وقبل أن يحصل على خلاصته المدهشة، كان يبحث عن رائحته الخاصة. والثانية، أن فكرة المثالية في الجمال والقداسة فكرة ساذجة، بل يمكن أن يكون الجمال تاريخاً طويلاً من الدم والجريمة، لكن ما يلزمه ليكون جمالاً هو أن يؤمن الناس به فقط، والرواية تدور حول المختل (غرنوي).. غريب الأطوار، الذي يبتكر عطوراً يحضرها بضفائر فتيات عذراوات، يقتلهن ثم يتشمم أجسادهن، ثم يستعمل ضفائرهن في التحضير. هذا المختل قتل أربعة

وعشرين فتاة، وعندما قتل الفتاة الخامسة والعشرين وصل إلى العطر الذي سحر يقين الناس به، ليبلغ به حالة الجمال المطلق.

هل هكذا تؤمن به الجماهير؟! لا يحتاج إلا لمؤمنين، سواءٌ أكان مثالياً أو دموياً مرعباً في حقيقته!

كيف يمكنني أن أثق بأية فكرةٍ كبيرة غيَّرت العالم، أو أي رجلٍ يؤمن الناس بأنه مخلِّصهم.

صرت أسأل أين هي الجريمة!

٢٨

بيروت:

إذا أردت أن تلتقط صورة لنفسك.. فلتتصوّر وحدك، ولا تتصور في مكانٍ لك فيه حكاية، فكل صورة تجمع اثنين تنطوي على مصيدة مؤجلةٍ للحنين. كل صورة يمكنها أن تكون صيغةً وموحشةً للعالم!

كازابلانكا:

لا تترك أثراً لشيء يخصك.. صدقني إذا قلت لك بأن أشياءنا التي نتركها وراءنا تشدنا من أنوفنا إليها مهما كانت صغيرة ولا قيمة لها. هذه إحدى لعنات الأشياء التي لا نهتمّ لتركها خلفنا. مثلاً: لا تقلّم أظافرك في بقعةٍ لا تثق فيها بالحياة ولا بالأغاني.

المقبرة في ضاحية المدينة:

أقترح عليك أن لا تورط نفسك في سماع أية حقيقة بصحبة آخرين. يمكنك أن تسمع الأكاذيب بين من تشاء. اسمعها بين كل البشر، لكن تذكر أن الحقيقة حين يعرفها اثنان فإن أحدهما سيكذب، والآخر سيكذب. الحقيقة فردانية دائماً.

الجنوب:

ما يزيد القلب الحي ألماً أن مساحته تسبق الأوجاع دائماً بخطوة.. فلا هو ينتهي، ولا هو يقضى عليه.. يبقى في هذه الملاحقة اليومية. هذا قدره!

الرجل الذي بلغ ثمانيةً وسبعين عاماً:

الشخص القوي جداً، لا ينظر إلى من يحب.. تقريباً يتجاهله، هكذا هم الأقوياء، يعرفون جيداً أن قلوبهم سهلة لمن أمكنه أن يعرف طريقها، فيختبئون بالرغم من قوتهم خلف الصمت والإعراض. أقسم لك.

البئر:

كلما قَسَتْ عليك الأيام.. فلتتصرف بعناد. كن أقسى من حياتك عشرة أضعاف. انتبه.. لا تطمئن للذين يضعون أيديهم على كتفيك فوراً. ثق فقط بالذين تخجل من هزيمتك قدامهم.

٢٩

اثنان.. اثنان!

ومرةً أخرى عن الليل والكلمات.. أفكر أن السواد في هذا الكون اللانهائي هو الأصل، وأن الضوء والنهار شيءٌ طارئ وعَرَضي. ومهما كان عدد الشموس إلا أنها لا تكاد ترى ولا تساوي شيئاً في عتمة الكون الكبيرة والممتدة. الليل هو اللون الأزلي الذي ترجع إليه صبغات الأشياء. اللغة أيضاً ترجع إلى أصلها الليلي. لا توجد كلمة لم تنطق أول مرة في الليل!

ليلاً.. يقول واحدٌ لواحدة: أنتِ.. ووجهاً لوجه، وقفزاً على الأوجاع الصغيرة، وكل ما يجب أن يقال، وما لا يجب أن يقال.. هذا أنا أمسك بجديلة سهرك، وأهز رأسك لأقصى ما أطيق، وأصيح في عينيك: «قولي إنك لن تتألمي. قولي إن الذهاب صغيرٌ وهامشيٌ للدرجة التي لا يمكنه أن ينال منّا».

وليلاً.. تقول واحدةٌ لواحد: اسمع.. قبل عام من الآن، جاء الحلم بعباءته المطرزة، وكان يفتش عن روح مقطّرة وخاليةٍ من الشوائب.. جلس على صخرة عالية، وتفرّس في أجساد الناس من فوق جبالنا، وفجأةً لمحني أربط غصناً نحيلاً بمنديلي القروي.. فقال «هذه.. هذه!».

وليلاً.. والدةٌ توصي ابنتها: لا تأوي إلى فراشك وأنت لا تريدين النوم، ولا تنامي قبل أن توصدي الشبابيك والأبواب، فالريح ليس لها موعد.

وليلاً.. رجلٌ يقرص أذن ولده: لا تجلس عند الباب، ولا تترك لأحدٍ أن يرى ماء عينيك، ولا تأخذ شيئاً مما في أيدي الآخرين، لكن تذكر أن عليهم أن يخلعوا رقبتك قبل أن ينتزعوا ما في يديك. هل تفهم!؟

وكل ليلة تتذكر تلك الوالدة كلمةً حلوة، وفي سرّها تطلب من اللّه أن يحرس ابنتها من كلمات الرجال. وكل ليلةٍ يتذكر ذاك الوالد شيئاً قديماً كان في يده.. ويمسح عينيه!

٣٠

اللّه وحده يعرف ما الذي يمكن للصوت أن يفعل بي، واللّه وحده يعرف عدد الأصوات الهائلة التي تنطوي عليها نفسي، منذ أتيت لهذه الحياة. الأصوات التي لا نهاية لها والتي أخمن أنه دخل الكثير الكثير منها إلى أعماقي منذ كنت في بطن أمي وحتى هذه اللحظة..

كل واحدٍ منا سمع صوت المطر وصوت الريح والموج وصوت الناي، لكن ليس كلنا يمكنه أن يسمع صوت العذاب الوجودي المندسّ في المطر، ولا صوت الأحلام والعذاب والوداعات المريرة التي تمضغ قصصها الريح، وتزفرها شطآن الموانئ والنايات.

في الريف.. من لم يسمع الغناء الذي يركض بخفة بين الحقول وبيوت الطين أو في عقدات الضفائر والمراعي فإنه لن يعرف شيئاً عن الماء، ولن يميّز شيئاً في نقرات المطر على الشبابيك والآنية المكشوفة. لن يفهم شيئاً عن بهجة السنابل!

أغنية «كيف كنت أسكت والهوى يوجعه!».. يغنيها اليمني محمد مرشد ناجي، وأفهمها ولا أريد فهمها.

ما أجملها!

٣١

قرأت كثيراً وكثيراً عن البشتون، أوجعوني كثيراً هذه الليلة، وأيقنت أن الآلام الكبيرة تخلق كلماتٍ كبيرة، والأوهام لا تخلق إلا وهماً. الفرق بين كلمات شعبٍ وشعب آخر هو الفرق بين آلامهما، الآلام نفسها هي الفرق أيضاً بين كتابة شخصٍ وآخر. تجارب الحياة هي الميزان الذي تصبح فيه الكلمات ثقيلةً وعميقة، أو تصير خفيفةً وبلا أثر، مهما كان فيها من الألوان والخدع.

الكتابة التي تأتي من تجربة.. هي الكتابة التي تنتمي للحياة والطبيعة. الذي يكتب عن الحب والخوف والحلم، وقسوة الأقدار ترجمه بحجارتها من كل صوب، ليس كمن يكتب عن الحب والخوف والحلم وهو لم يجربها إلا متفرجاً، يلاحقها في شاشات الفضائيات، وصفحات الكتب، وحكايات الآخرين!

النساء البشتونيات، أولئك اللائي مزق الظلم والحب والخوف والحلم قلوبهن.. النسوة اللائي رأين الأكفان آلاف المرات، وربما لم يرين ماركات القمصان والجينزات والأحذية الإيطالية والفرنسية ولو لمرةٍ واحدة. ربما تخيّلن قليلاً جلباب

العرس، وتخيلن معه دوائر كبيرة من الدم.. تقول البشتونيات ولا أعرف من ترجم كلامهن هذا لكني وجدته:

* يا إله المنفيين الكبير،
  كم ستدوم الحياة فوق هذه الهضاب الجرداء؟
* على وجنتي تتدحرج دمعات،
  كيف أنسى قمم جبال كابول المكللة بالثلج؟
* تباعد جبال بيننا الآن
  وحدها العصافير رُسلنا، وأناشيدها الدليل!
* اذا مات حبيبي، لأكن كفنه..
  هكذا نتزوج الرماد معاً.
* ماذا تستطيع أن تفعل إلاّ القتال!
  لن تكون، إذا خضعت، سوى عبد عبد.
* الشهيد شهب يلمع ثم ينطفئ.
  الميت في أرضه لا يفعل شيئاً سوى إتلاف الأسرّة.
* ليس لك سوى الهباء، لن تأخذ فمي أبداً..
  لقد اختبأت حين ذهب الرجال إلى المعركة.
* لن يأتي الموت اذا لم تحن الساعة.
  سيشتعل العالم، لا تخف أبداً يا حبيبي!
* لو كنت أعرف أن زمن الفراق سيأتي،
  لأمسكت بيد حبيبي حتى ساحة المعركة.

* إذهب وقاتل في كابول، يا حبيبي. .
من أجلك، سأحتفظ بفمي وجسدي طاهرين.

* أيتها الأرض ضريبتك كبيرة،
تفترسين الشبيبة وتتركين الأسرّة قاحلة.

* يا إلٰهي، لا تدع امرأة تموت في المنفى،
ستنسى اسمك وهي تلفظ أنفاسها الاخيرة،
لن تفكر سوى بمسقط رأسها!

* أيها القذر الصغير تناول بندقيتك واقتلني،
فطالما أنا على قيد الحياة، لن أتخلى عن عشيقي أبداً.

* يا إلٰهي، أحرق بيوت
الذي دمّر منزلي، الذي أهداني الموت!

* في يدي وردة تذبل،
فأنا لا أعرف لمن أعطيها في هذه الأرض الغريبة!

* ليؤذن الشيخ صلاته عند الفجر،
لن أنهض ما دام حبيبي يريدني.

* يا إلٰهي. . لتضمني اليوم،
لم أعد أرغب في رؤية الوجوه، لقد ذهب حبيبي!

٣٢

أنا غاضبٌ جداً. .

ولا أريد أن أنتمي للبلدان ولا للأعراق ولا لسماءٍ واحدةٍ ولا لأرضٍ واحدة، أريد أن أكون مخلوقاً من عرق الخيول ومياه الأنهار والسفر. . أكثر ما يشغل بالي الآن هو المطر والنار والرحيل. أريد أن أكبر لأبحث عن لونٍ جديد أخلطه بألوان حياتي، وأغنيةٍ جديدة أؤلفها أو أحفظها لتساندني عندما أنوي أن أعبر أرضاً إلى أخرى. أريد أن أعيش كي أعدّ أساوري وملابسي البسيطة. أن أكون مشغولاً بالخواتم والقلائد والرقص فقط!

أريد إذا هرولت أن لا أفعل ذلك لأن يقيناً واحداً أو جذراً يملي عليَّ حياتي من الخلف. . أريد أن أعدو عندما يؤلمني جوعي للحياة، عندما تضايقني الحقيقة، أريد أن أجابهها بالسفر والمشي إلى قدّام. أحتاج أن لا أعبأ بأي ماضٍ وألا أتوقف عنده. . أن أفتش عن مستقبلٍ جديد. شرطي الوحيد أن لا ينفصل وجودي عن الطبيعة والرقص، أن لا يقف شيءٌ أو أحدٌ ما بيني وبين حريّتي!

٣٣

يقولون إن أهلي كانت أرضهم بالنسبة لهم معبداً، كل حصاةٍ وورقة شجر وقطرة ماء كانت تعني لهم صلةً وصلاةً للّه.

يقولون إن أهلي تعلموا من آبائهم وأجدادهم أن الأرض عار الرجل وشرف المرأة، وأن الذي يتنازل عن أرضه يبقى أخيراً دون عارٍ ولا شرف!

٣٤

كنت البارحة بأحد المسارح. صعدتْ سيدة عمياء، وفرقتها الموسيقية بانتظارها. كان يقودها رجلٌ لا معنى له، حتى أوقفها أمام الميكروفون. بدأت الفرقة تعزف، وبعد قليل بدأت تغني هذه العمياء «طول عمري بخاف من الحب، وسيرة الحب». غنتها بسحرٍ كفيف يشبه عينيها، وسمعت نشيجاً عالياً عن يميني ويساري. غنت تلك العمياء، ثم ذهبت وهي لا تعرف أي سكينٍ تركتها خلفها!

نظرت ليميني فرأيت فتاةً، ليس معها أحد، تبكي، ونظرت ليساري فرأيت فتاةً تبكي ومعها رجلٌ يكبرها بسنين كثيرة.. يضع يده على ظهرها، ويشعر بالخجل.

خطر بنفسي أن النساء أقرب للموسيقى من أي رجل مشى على هذه الأرض، نحن الرجال نسمع أصوات الدفوف والكمنجات ونقرات الأوتار، لكننا لا نستطيع أن نقبض على الصوت بأصابعنا أو ندهن به صدورنا أو نخبئه تحت وسائدنا ولا خلف أحداقنا.. النساء يفعلن ذلك، أجل يفعلنه ولا يمكن لامرأةٍ أن تنسى صوتاً مسّها ولو في الحلم! النساء لم يفعلن شيئاً للموسيقى ولا صنعن شيئاً من تحولاتها.. الرجال فعلوا ذلك.

الرجل عزف وغنى آلاف السنين، لكن المرأة أحست بالصوت أكثر منه..

عزف الرجل وغنّى، لكنما من أول يوم تولد وتلد المرأة فتصيح، وتفرح وتغضب وتحب وتنفر وترغب وتلتقي وتودع وتنادي وتشتم.. فتصيح. الصوت ليس مجرد هواءٍ أو حزمةٍ من رنين الحبال في أفواه النساء. الصوت ينبت وينمو في المرأة كما تنمو ساقاها ويداها وشعرها وحنجرتها.. وكما يكبر قلب المرأة تكبر مساحة الصوت في روحها، تكبر حتى يصير الجسد كله سمعاً. المرأة تسمع بجبينها وصدرها وحتى باطن قدميها أبلغ مما يسمعه أي أحدٍ بأذنيه. إن امرأة واحدة فقط عندما تسمع أصواتًا جميلة تجعلها تمشي دون عمد أو تهز يديها أو جنبيها أو رجليها دون عمد، ستكون قد رقصت في حياتها أكثر مما رقص رجال العالم!

٣٥

الشتاء كعادته في كل مكان، حين يأتي بأيامه الأولى، وقبل أن يذهب بقليل، يفعل الفعلة نفسها.. يفتح صدره، ويدخل يديه في أكمامه، ويرمي بكل ما فيها من الخدع الرقيقة، ثم يفرد سبّابته الطويلة ويخطّ بها خطاً من البلل الحميم على جسم الرذاذ والوسائد.. وكالعادة في هذا التوقيت، قبيل رحيله بقليل، يفتح الشتاء فمه لتفوح منه وجوهٌ ساكتة، وعلى زجاج النوافذ يطبع قلوباً تتهيأ كل مطر للقفز في فخّ الحلم.. والنسوة يصرن أقل مناماً، وأكثر شغفاً بالألوان وصوت المزاريب! في الشتاء.. يصير هذا الليل شجرةً سوداء، وخلفها رجالٌ كثيرون، كثيرون بعدد الخطوات التي مشت إلى البيوت التي نبتت أعشاش الحمائم على نواصيها. والشعراء المساكين تخونهم قصائدهم، ولا يملكون من ليالي البرد إلا كتابة رسائل طويلة.. لا يرسلونها. في الشتاء.. الشعراء يشقون في المكاتيب، والرجال منذ القديم مفتونون بالأوراق!

وفي هذه الليلة الباردة.. أنا مثل غريب، أمسك بورقة صغيرة، في شرفةٍ قاصية، جالساً أمام البروق التي تلمع في جانبي السماء، أرى الرياح والغيث وهما يتشابكان بحنينٍ وحزن،

وأسمع في أعماقي الأغنية التي أحبها «أنا وشادي غنينا سوا». مددت ورقتي قدّامي، وسحبت الغطاء عن رقبة قلمي، وبدأت أكتب لك وأنت في قبرك!. أتذكرك الآن، كما لو أنك جلست أمامي على حافة جدار وصحنا وضحكنا، أو أننا كنا أكلنا من الرغيف نفسه قبل ثلاثين عاماً. أتذكرك ونحن صغيران بثياب رديئة ومتّسخة، وكأننا نأكل ناسين أن نغسل أيدينا بعد العبث بالطين والحجارة، وأمنا لم تنتبه لأن الفانوس كان يستحي منها، كان ظلّها ورائحة حنائها تغسل الجدران.. أتذكرك في هذه الليلة الباردة، ولا أجد ملامح ولا لوناً لك أصدق من هذا المطر!

لا بأس.. أتذكر أني البارحة قمت إلى فراشي ولففت وجهي بقطعة قماش عتيقة. كانت عيناي تحت الجزء الكثيف من القماش. أطفأت النور. رجعت إلى مكاني واستلقيت. كنت أحفظ الطريق من الجدار إلى مكاني. وأنا على ظهري أحاول أن أحدّق في اللون الذي يغطّيني، لكنّي لم أرَ شيئاً سوى الفراغ بسواده المطلق، حاولت أن أفتح حدقتيَّ أكثر وأكثر.. وفجأةً سمعت حركة أنفاسي الخافتة في صدري، أنصتُ لها، أنصتُ.. أنصت. أحسست بالخشوع.. نسيت عينيَّ ونسيت اللون وقطعة القماش.. ودونما شعور بشيء غفوت في صوت الهواء وهو يعبر بين جنبيّ.

٣٦

انظروا للندبات التي بأجسادكم، وامسحوا بعيونكم على الأشكال التي خلفتها الجروح التي في أيديكم أو في أقدامكم، تأملوا بقايا الحروق الصغيرة التي مست جلدكم ذات يوم قديم.. سترون أنها كبرت معكم، عاشت معكم دون أن تنتبهوا لها، وربما كانت هي ما سيبقى منكم في ذاكرة الآخرين بعد أن تذهبوا عنهم! هذه العلامات لم تكن معنا حينما أتينا من بطون أمهاتنا، لكنه الزمن ألقاها علينا في لحظة ما. ربما آلمتنا يومها، لكننا ألفناها أخيراً.. حتى إنها صارت جزءاً من أشكالنا، وأحياناً صارت هي أيقونة شكلنا وجاذبيتنا في نفوس من حولنا!

الأجساد التي لم يضع الزمن يده عليها بأي أثر.. أجسادٌ لم يعترف بها الوقت، لم يعرها أهميته وكيمياءه. لقد بخل عليها بالقصص اللاصقة بالجسد.. هناك بالفعل قصصٌ لاصقةٌ بجزءٍ ما من نواحي أجسادنا!

وهناك من يكتب من جوف هذه الندبات والجروح والحروق اللاصقة، ولغته تترك الأثر ذاته، وهو في شخصه يشبه ندباً حلواً في حاجب، أو مسحة جرحٍ قديمٍ على ظهر ذراعٍ أو جبهة.

٣٧

صباح اليوم كنت أريد أن أذهب لشركة الاتصالات. خرجت فجراً قبل أن يبدأ الدوام، وأخذت أتجول بالسيارة، ومررت بالجوار من بوابة الشركة، فرأيت رجلاً مسنّاً يجلس على الرصيف. كان قروياً أنيقاً وجميلاً، وبيده سبحة يفركها بشرود. أوقفت سيارتي وألقيت عليه السلام، فلم يجبني، وهذا أعجبني وشدني كثيراً. استأذنته بالجلوس جواره ولم يجبني أيضاً، فجلست. قلت له ما بك يا عم؟ وكررت السؤال عليه مراراً دونما أدنى رد، وحينما أثقلت عليه، التفت إليّ وقال «يا ولدي اللّه لا يبتليك بحبّ من لا يحبك»، ثم ركّز عصاته قدامه واستند إليها وقام، ومشى!

يا ألله! هنا في أرضنا وملامحنا.. هكذا هم الكهول. حين أتأمل خرز سبحاتهم المؤمنة تتدافع بين أصابعهم، كما يمرق الفارّون من أرضٍ إلى أرض، متوترين وخائفين، أفكر كم يلوّعهم التشبث ببقايا حكاياتهم وأشيائهم، كم هم مشتاقون للحب والركض والصراخ وحتى العراك. الذين يبلغون سنواتهم الثمانين يحدثون أنفسهم أنهم سيبلغون المائة.. يقولون: لا، لا يمكن أن يكون الموت قريباً جداً، حدّ أنه يحدّق في أجسادنا

المنهكة من وراء السقوف والأسوار، لا بدّ أن لنا عمراً أطول مما يخمّنه كل الذين ماتوا قبلنا في هذه السنّ أو أقل منها بقليل، أو أكثر منها بقليل. الكهول ما عادوا يفرحون بالليل لأنه كلما أقبلت عتمته تمكّن حزن الذهاب وغصته من قرارة أعماقهم شيئاً فشيئاً. حزن الذهاب هذا بالذات هو الذي يقضم ما بقي من العمر والحب.. والكبار، قلوبهم تشبه قلوب الصغار كثيراً. لا يمكن إقناعهم بالوصايا، وربما أننا إذا كبرنا جميعاً تأففنا من الوصايا، وربما صرنا أقل كلاماً، لأن كل الكلمات الممكنة قد قلناها مراراً.. واللغة نفسها تخذل المسنين بذات القدر الذي تخذل به الرضع، الفرق أن خذلانها للكهول قاسٍ ويائس!

«اللّه لا يبتليك بحب من لا يحبك».. آمين!

ملحق بالمنامات

تنبيهان قبل الوقوع في أي منام:

* تنبيه سرّي للغاية:

لا تترك شجرتك وحدها تواجه الظهيرة، قد تيبس، أو ربما قطعوها!

* تنبيه مؤلم:

في الأشجار.. ربما يكون هناك ما هو صادق، إنما ليس هناك ما هو حقيقي. وحينما تصبح مصقولاً، لن يؤثر بك الحقيقي كثيراً.. سيكون ما يؤثر بك هو الصادق،
مهما كان بلا حقيقة.

منام
نوفمبر ٢٠٠٥/ابريل ٢٠١٠

رأيت طفلةً تستحلفني أن لا أموت، وأن لا أصير أعمى يوماً.

خفتُ.. فخرجت امرأة شقراء من تجاويف زنبقة، تشبه العمر، وأخبرتني أن عينيّ لا تنطفئان حتى أبلغ قرناً إلا بضع سنين..

وسكتت سكتة الحداد، ثم قالت: «ذات يوم سيأتيك العدم الذي تريد».

منام
أكتوبر ٢٠٠٤

وأنا لا أدري . .
يحدث أن أصافح الأنذال
فأعرفهم من الحساسية التي تلصق بالقلب
والحمرة التي تلطخ اليدين
والقرف الذي يخالط الزاد والماء!
وبعد هذه السنوات السافلة
عرفت أني لا أصلح لمصافحة الآخرين
وأني الرجل الذي اختاره الماء والليل بالذات
وأن قلبي ويدي . .
قلبي ويدي لا يغسلهما غير الشهيق والعتمة!

منام
اغسطس ٢٠٠٢

رجل وامرأة:

المرأة جميلة . . وتقسم باللّه أنها ضيّعت أجمل ما في حياتها بيديها، وتقول لمن حولها بندم مرّ: «إن أثمن ما تحتاجه الآن هو شرفةٌ صغيرةٌ وبعيدة، تطلّ منها على الزمن وتنظر للجبال والسحابة، وتترك صدرها للرياح تعاقبه كيف تشاء!»

والرجل وحيد. كان يظهر وكأنه لم يستطع أن تكون له حياة. كان يجوب الطرقات وحده، لا يتعب من ذلك، وحين يمرّ يومٌ ولا يفعل ذلك، يختنق ويتحسس الظلم يكبر في جنبيه، ويضغط على أنفاسه، ويبخسه حقه من الهواء!

خرج مخذولاً ويقول في نفسه «هذه هي المرة الأخيرة، الأخيرة . . وواللّه لن أعود». مزق آخر قصاصة، وبعثر كل جزء منها في مكان غير الذي قبله . . وعندما صار في أشد الظمأ، قذف بكأس الماء إلى الجدار، وسمع صوت الهشيم. أمسك بعض فتاته، بدون حذر، ورماه مرةً أخرى!

والمرأة التي كانت تنظر من نافذة السيارة وهي راجعة لبيتها ليلاً، اقتربت من الزجاجة حتى لاصقتها بخدها، ضغطت بكفّها

على الزجاجة حتى تركت أثرها بعد أن رفعتها.. كانت حزينةً، ولا أحد انتبه لحزنها!

الرجل يريد أن يعود خالصاً ونزيهاً، كأنه جنينٌ هزيلٌ. لا والدته ولا الطبيب يتوقعان أنه سيعيش، يريد أن يتوقف عن الكلام، أن يكون بلا ذاكرة.. أن يصير فراغاً!

والمرأة.. أوصدت الباب، وأطفأت النور. تمددت على فراشها، ووضعت يديها خلف رأسها، وتذكرت أن هناك على الرفّ الذي لا تطوله يداها شيء تحبه.. شعرت بالأسى، ونامت وشبّاكها مفتوح.

منام

مارس ٢٠٠٠

يا ألله.. افعل شيئاً،
فأنا لست نملة ولا أحب السكّر
ولا أمشي في الزحام، ولم أبن لصغاري بيتاً،
ولم أخزّن لهم شيئاً عندما يأتي الشتاء..
يا ألله.. افعل شيئاً!

منام

ديسمبر ١٩٩٥

دلّني يا أبي،
الحلوات يجئن في غير وقتهن..
يتركن كلاماً على حواف الطاولات والنوافذ ومقابض الأبواب،
يتركن أنفاسهن على لعاب الكؤوس،
على أغنيات أواخر الليل
وحليبهن يتركنه على القمصان،
يختبئن في الشراشف المدهوكة بالوعود، والمناديل الملقاة على الأرض البكماء..
يااااا أيتها المناديل المليئة بالرغبة والخوف،
ها هنّ الحلوات.. يجئن سراعاً ويشغلن البال،
يملأن دمي بصياح الديوك والمؤذنين والبغايا..
لكنهن يأتين في غير وقتهن!
آخ.. آخ، ثم يتطايرن كالفقاقيع في أرجوحة الوهم
ويذهبن سراعاً..
سراعاً.

منام

يونيو ١٩٩٩

بلا أصدقاء،
خائفاً.. وبعمري البربريّ هذا أمشي في حيّكم،
لا الباعة، ولا الفتيات الحارّات، ولا المقاهي.. تأخذني!
الوجوه فحسب؛
هذا وجه أمي.. لكنه خالٍ من آخر مخدّة،
هذا وجه أختي.. لكنه خالٍ من ضحكة النافذة،
وهذا صوت جارنا، لكن أينه القمح والأذان؟
أمشي في حيّكم.. ويدي ترجف باللّه،
وثيابي تحلف بالطرقات،
وعظامي واحدةً واحدة.. في حقيبتي!

منام
سبتمبر ٢٠٠٩

هذه ذراعي، ليس بينها وبين البحر سوى سحابة واحدة،
وتلك الجسور الصماء.. بين ذراعي وبين البحر،
لكنني أخرج فجراً كالهاربين من الثأر،
وقبل أن يطلع الصبح تثور في ساقيّ أحصنة سوداء،
وعلى منكبيّ حشدٌ من الأشباح!
يا ألله.. كم أريد أن أغمس كفي في بحرك المالح
لأغسل الأحلام التي تحملق في نومي
كي أطهّر تعبي من الخمر والآخرين،
وأخنق غضبي على الساحل!

منام
يناير ١٩٩٨

من يعيد لي هذا القلب الهارب.. من؟
يا رب الدنيا، كنت مثل هذه المخلوقات من حولي،
أحنُّ، وأمسح وجهي بكمّي، وأكتب أوراقاً مسورةً بالحروق الساذجة،
كنت مثلهم أفكر في الأصابع المعقودة بالرغبات، وكنت أحكي عن المشي الضائع في الليل،
وأسأل الآخرين بخفّة؛ إلى كم تشير الساعات التي بأيديهم؟
كنتُ وكنتُ وكنتُ.. أما الآن، يا رب الدنيا!
حتى أنت يا رب الدنيا،
لا تقل لي كم هي الساعة!

منام
أكتوبر ٢٠٠٧

يدي على صدري،
والطيور الآن تقفز من غصنٍ إلى غصن،
والرياح تحزم أمرها وتعبر من بين الجبال والجدران،
والفراشات يحملن على أجنحتهن الهشة حظي التعيس.
يدي على صدري، والنسوة اللائي واعدتهن في أطراف الحقول
يمشين في جسدي واحدةً واحدة!

منام
فبراير ٢٠٠٧

نادى صوتٌ مجهول: ما الكتابة؟ تكلمت أرض الناس.. قالت: الكتابة أثرٌ صغير.. لا يساوي شيئاً من الكثير الذي محوناه، لكننا نكتب!

قال الصوت: إذن بمن تثق الكلمات؟

قالت الأرض: بمن لا يمحوها.

لا أدري من أين جاء الصوت المجهول، من الوراء أم من الأمام! ربما جاء من قريةٍ أو بادية أو ميناء،

أو ربما خرج كالصدفة من منديلٍ بمجرى السيل..

وكانت أرض الناس هي نفسها أرض الناس، إلا أنها كانت محمومةً وقلقةً، وتظهر وقد تمددت قليلاً!

كان الوقت ساعة الشروق، ومع كل سؤالٍ كانت أرض الناس تتفتح في نواحيها ذكرياتٌ شجاعةٌ على مدّ العين.. وعندما توسطت الشمس سماء البشر، سكتت أرض الناس حتى مرّت الظهيرة، ثم سألت تلك الأرض من أعمق بئرٍ للماء فيها: أيها الصوت المجهول.. كيف تعرف الرجال؟ فأجابها الصوت: أعرفهم بما يخفونه وما يخافون منه!

طيب.. هل يتكلم الرجال كثيراً؟ هكذا سألت أرض الناس.

أجابها الصوت المجهول بثقة: ألسنة الرجال في أيديهم وأقدامهم.. ألسنة الرجال في أجسادهم أكثر منها في أفواههم. الرجال لا يكذبون!

ذهب الصوت المجهول ورجع، ثم ذهب ورجع.. ومرةً أخيرة رجع وسأل: خبريني أيتها الأرض الطيبة، يا أرض الناس.. ما الذي يملأ نفساً واحدةً بالشعر والغناء والكراهية والقتل؟

لم تتكلم أرض الناس، لكن الريح هاجت وتحركت الأشياء كلها، كأنها تحلب طبيعة اللّه، وتبدّى شيء؛ توهمت أنه الحب.. كان بساطاً كثير الألوان، يتسع كلما جلس عليه أحد جديد. كان العميان والمؤمنون يبكون ويتدافعون على جنبات ذلك البساط الذي صار على مدّ البصر..

ذهب الصوت المجهول، فقالت شرنقةٌ صغيرة: من يدري؟ ربما يرجع الصوت يوماً، ويتكلم بأعلى جهره بكل ما محوناه، وستبقى أرض الناس.. هي نفسها أرض الناس!

منام

يونيو ٢٠٠٤

قدمان.. ومَعبَرٌ لا أثر فيه لخطوة نحو الوراء، قدمان وطريقٌ واحدة، وعابرون لا يتوقفون عن الهرولة حتى وهم في أقصى إعيائهم، حتى وهم في أشد حاجتهم للراحة، وربما الإغماء، إلا أنهم لا يستطيعون أن يكبحوا سعارهم، أن يستعيدوا أنفاسهم من هذا الركض الأزلي ولو لغمضة.. وكان الوقت يركز قبضته في ظهورهم، ويدفع كلاً منهم نحو تفاصيل دقيقة بحجم الذرات.. دون توقف، ولم تكن هناك أية نهايات تُرى!

كان الوقت غريباً، مجللاً بهذا المجهول الغامض، وطلعت سيدةٌ ما في هذا الوجود.. كانت في عمرٍ لا يمكن تخمينه، مغمضةً عينيها، مائلةً برأسها إلى الجدار، والهموم تكاد تشرخ جفنيها المطبقين.. وتعبٌ قاتمٌ يعلو ملامحها، ويرمي عليها انكساراً مؤلماً، لدرجة أنه لا أحد يجرؤ أن يسألها «ما بك؟».. وكأنها كانت للتوّ قد حدّثت نفسها كثيراً أن تضع حدّاً لخيباتها، التي تحيط بها من كل صوب، لكنها لم تمتلك إرادةً كافيةً لتتحرر، وتفكّ قيود ذاتها. كانت كبرياؤها وكرامتها لا تكفّ عن الأنين حيناً، وعن توبيخها وازدرائها حيناً آخر.. وشعرت من أعماقها أنه يتوجب عليها أن تقفز من هذه الحفرة الخانقة فوراً،

أن عليها أن تمسك قلبها بخطامه، وتقوده نحو ما ترغبه هي فحسب. تشعر أنها إن لم تفعل ذلك فإنها ماضيةٌ نحو عجزها، واستسلامها لقبرٍ محفورٍ في جوفها، وإنها قريباً ستسكنها حمّى النهاية، التي ستنهش تدريجياً ما تبقى في قلبها من الأمل والحياة. نهضت وابتسامة صغيرة تورق على فمها.. واختفت بصمتها خلف جدارٍ أخير، وأهلها وجدوها هناك. كان آخر مكانٍ ذهبت إليه!

وفي زاويةٍ أخرى.. كانت تجلس امرأة دون الثلاثين على فراشها، حاشرةً رأسها بين ركبتيها، وتنوح كل خليّةٍ فيها، لأن لها بيتاً قديماً وصغاراً لم ترهم منذ زمنٍ بعيد، وتحلم فقط لو يمرّون أمام ناظريها كالبرق.. قالت: «إن ما تريد أن تموت لأجله الآن أن تسمع كلمة ماما». ثم رمت بقلبها المجهد بكل اندفاعٍ في زنزانة سوداء بلا رحمة.. وصاحت «إنني امرأةٌ تموت».

ثم رأيتني أمشي مرةً بهدوء خلف عجوزٍ معكوفة الظهر، كانت تقطع طريقاً طويلةً وحدها.. عجوز تقهقه، وتمشي بتصميم!

منام

أكتوبر ٢٠٠١

رأيت أن دنيا الجميع تتآكل وتوشك أن تنقضي، كأن كل ما في هذا الكوكب يتهدّم، ولم يبق منه غير مقعدين خشبيين، في مكانٍ هشّ ومهمل، في أرضٍ كانت مأهولةً بالمطر والضباب والشجر والناس، والمخلوقات جميعها ماتت، ولم يبق غير اثنين من بني البشر. رأيت شبهي التام فيهما.. والاثنان يركضان بفزعٍ وصراخ، وبينما هما في أقصى بحثهما عن ما بقي من الدنيا والحياة والأهل والأشياء، وبينما هما محاطان بكل هذا الخراب.. التقيا صدفةً بجوار هذين المقعدين، فتعانقا وتباكيا، ثم استلقيا مهدودين، ومتهالكين.. متقابلين وجهاً لوجه، عزّيا بعضهما في وفاة الموجودات، ونهاية العالم، وكلاهما قال «يا إلهي إن الدنيا صارت كومةً من الأشلاء»، وتساءلا: «ما الذي بقي في حوزتنا؟ وما الذي بقي في كفّ الوجود ليعطينا إياه قبل أن نلحق بهذه الجثث والركام؟».. ولاحت أمامهم أوراق طائرة..وكأن بها شعراً قروياً بسيطاً. سكتنا وحلما من جديد بالأرض والليل والمخابئ.. ووجوهٌ قليلةٌ جداً طافت في جبهتيهما، وراحا يرددان ما بقي لاصقاً في ذهنيهما من حنينٍ حارق!

منام

نوفمبر ٢٠٠٨

كان الشتاء يروِّض بلياليه بشراً كثيرين، كان يريدهم أن يستقبلوا تلك الأحزان النبيلة، فاتحين كل أوردتهم لأقصى اتساعها. . عجنهم البرد، وأغرق رؤوسهم المطر ولياليه الطويلة.

ورأيت أني أرجع في الزمن اثنين وسبعين عاماً. دخلت إلى عدم شاسع، فرأيت وليدةً صغيرة، بطول الساعد. كانت تشبه الرعْشة، ولها عينان جميلتان، ومن فمها تسيل قطرات الندى. الوقت كان صباحاً، وهذا الصباح كان يتسلل إلى أضلاعها اللينة، ويصيِّر سرّها. اسمها نهاد. . وفجأةً يصير الزمن شبّاكاً، والوليدة الصغيرة في منتصفه، وعلى حدّه يقف عصفورٌ ملوّن، ثم اندلع زحامٌ من أصوات بنادق، وصرخات جرحى، وارتعش العصفور الملوّن من ضجيج الأعيرة النارية. . بكت البنت، بكت حتى صار بكاؤها صوتاً سحرياً، أعلى من الطلقات والدخان، وصارت تكبر وتخرج من شبّاكها حتى تحولت إلى رياحٍ بريّة، تعبر بين الشفاه والقبلات. لكن البنت هي نفسها لم تحصّل على ما تريد. كانت تحلم لو أنها صارت زهرةً جبلية.

منام

نوفمبر ١٩٩٠

ثلاث عشرة مركبة، بداخلها سبع وأربعون امرأة، كانوا على يقينٍ بأن نساء هذه الأرض يساوين كل شيء، من الصوت حتى قوس قزح، ومن الزمن حتى ارتطام الريح بالنوافذ. . أردن الصراخ في تلك الطرقات المجعّدة بالظلم: أنهن الأرض والبذرة وماء الغيمة، أنهن يد الفلاح وظهره، وأنهن كينونة الجذوع العريضة والظّل. أردن أن يحفرن لهن على الأسفلت يوماً واحداً. . يوماً واحداً فقط من بين كل أيامهن المسلوبة. كنّ يتجوّلن بأجنحة شجاعةٍ كالملائك، وقلوبهن معلّقةٌ كالأقراط في آذانهن. وحين داهمهن الخراب، فتصارخن بروح الله، يحلفن واحدةً واحدة؛ إن المرأة لا تذهب يوماً للصمت إلا والحرائق توشك أن تنهش البيت، وإن الأمكنة تخسر روحها، وتصير صماء وكفيفة. . والحياة كلها تفقد شهية البقاء!

منام

إبريل ٢٠٠٠

رأيت طفلةً في الرابعة من عمرها تسألني: «لماذا يأتي الليل كل يوم؟»، وأخرى تقول في فراشها: «حين نطفئ الكهربا، أين يذهب النور؟» ثم رأيت سيدةً وإلى جوارها تقف طفلة بيضاء، كانتا في الفناء تنظران إلى النجوم. التفتت الطفلة للسيدة، ثم أشارت إلى السماء، وسألت «يا خالة.. كيف هو صوت النجمة؟».. رجعت الطفلة الأولى، وقالت: «أنا أعرف اسم السرير. اسمه مركبة الأحلام». ثم رأيت شارعاً، فيه طفل يفكر بشرود، وحين سأله والده عما به.. أجابه الصغير: «كيف شكل اللّه؟».. أجابه الرجل: «لا أعرف، لكن هل تعرف أنت شكل اللّه؟» قال الطفل الصغير «نعم.. لونه أبيض».

منام

يوليو ٢٠٠٦

رأيت صبياً، يبدو قريباً من الثلاثة عشر عاماً. يقف على مسرح، كان ينبجس من بين أضلاعه صوتٌ معجونٌ بشيءٍ من الغيب، والصوت يحوم كطائرٍ يسبح البخور خلفه في أرجاء المسرح، ولم يطلق أول نبرة حتى تهدّلت له الأصداغ، وانشدهت الحدقات والوجوه، والجالسون تجمدوا أماكنهم، وشخصت عيونهم، وبكت الأمهات في نواحي المكان أولاً! الأمهات بالطبع أول من يبكي، والصبي يستمر في الغناء دون أن ينتبه لما يحدث، ولا لشيءٍ مما يفعله.. كان يغني وينظر إلى شيءٍ لا يراه أحدٌ إلا هو. كان يركز عينيه فيه ويغني، وقبل أن ينتهي، وقف الجميع. كان هناك نداءٌ كبيرٌ ومهيب، أكبر من عمر الصبي وجسده، وأبعد من نبرات صوته وأغنيته، شيءٌ ما أمرهم بالوقوف والهتاف بتصديقٍ كامل!

منام

مايو ١٩٩٦

رأيت رجالاً يستقبلون مواليدهم، قال أحد المواليد: بثيابٍ بيضٍ يعيش الرجال هنا، وأخيراً في أكفانٍ بيض.. يرحلون! ظهر رجلٌ بدين.. بيده عدة أمتار من قطعة قماشٍ أبيض أيضاً، وكأنه ينتظر عند باب خياط، حتى صار المكان خالياً من أناس كانوا بالداخل، ثم دخل واقترب من الخياط، خافضاً صوته، كأنه سيبوح له بسرّ أخفاه كل حياته. طلب منه أن يصنع له من تلك الأمتار ثوباً. كان الخياط كلما قاس جزءاً من أجزاء جسده ليسجل طوله وعرضه، طلب منه الرجل أن يزيد الرقم.. زيادة في العنق، في اليدين، في الجنبين، في الكتفين، وعند الخصر طلب زيادةً أكبر، وفي لحظة حادة جداً أحس الرجل البدين بكراهية فظيعة للخياط، خرج ولم يرجع ليأخذ ثوبه! فجأةً صرت واقفاً عند الشاطئ وإذا برجل طويل.. كلما حركَ يديه انسحبت أكمامه، كان يتكلم بيدين جامدتين، ثم أسرع في مشيته وارتفع ثوبه حتى تكاد تنكشف ساقاه. ومرّ رجل كريه، كان متسخ الثوب، حتى إنه لشدة اتساخه لم ألمح منه سوى البقع العالقة فيه من أسفله إلى أعلاه. التفتّ فرأيت ثوباً ليس فيه أي أحد.. وخلفه يمشي شابٌ يلبس ثوب أبيه. ثم يختفي الشاب تماماً

داخل الثوب أيضاً، وتبدلت كل ألوان الثياب وصارت سوداً وقاتمة، وليس فيها أحد كذلك. ثم رأيت أنني في مكانٍ مزدحم.. هناك كان الرجل البدين والخياط يمشي من حوله. ابتسم الخياط ليلقي التحية، لكن البدين صرف وجهه، ومشى في اتجاهٍ آخر، وفي المكان المزدحم نفسه حدث شيءٌ ما، فلمحت الرجل الطويل وهو يركض حتى انكشفت ساقاه، والرجل ذو الثوب المتسخ كان جالساً على نفاية، وانطبعت في ثوبه بقعةٌ جديدة، ولما قام نظر المارّون جميعاً إلى البقعة الوسخة الجديدة. نظرتُ إلى صخورٍ ضخمة في منتصف المكان، فرأيت الشاب الذي كان يرتدي الثوب الذي ورثه عن والده. كان عارياً، أما ثوبه فكان مرمياً وممزقاً على الرصيف، وفي المكان المزدحم نفسه كان يمشي رجلٌ وسيم، يمشي بهدوء، ويداه في جيبيه، وكأنه لا يرغب في الحديث مع أي شخص.

منام

مارس ١٩٧٣

حلمي..
أيها الماء الجاري بآخر الأرض،
إليك صلاتي أيها السائل الوديع،
فخذها..
واترك لي ما لا تعرفه النار عن الحريق،
خذ ناصيتي الشهباء،
واترك لي ما لا تعرفه النجمة عن الجحور،
وخذ قنان الغريب، واترك لي ما لا تعرفه الشوارع عن القراطيس!
نعم.. نعم،
خذ السماء والجنة، خذ الوقت كاملاً..
واترك لي ما لا تعرفه الشمس عن وقاحة الظهيرة!
خذ اللحن، واترك لي ما لا يعرفه المزمار عن الجنازة..
خذ النوم، واترك لي ما لا يعرفه الأرق عن رائحة اللحاف!
خذ المطر، واترك لي ما لا تعرفه الشجرة عن الدود!
اترك لي كل الذي لا تعرفه عن اليتم والكوابيس.

كل الذي لا تعرفه عن الجدران واللحظات العريانة،
عن الظمأ ووجوه الخونة والكذّابات!

يا ذاك المضمّد بالأعشاب والظمأ،
خذ خلاخل الفجر.. خذ سباباته التي تنقر على شبّاك غرفتي،
واترك لي كومة الطين!
خذ صلوات المناجاة والمنقذين، واترك لي ما لا تعرفه الضلالات عن المعصية!
خذ الحوريات، خذ كل الحوريات، خذ كل نساء الوهم، خذ الفراديس،
واترك لي الجحيم!
ها.. حتى خذ ذكرياتي بأول مدرسة،
خذ أقلام الرصاص، والبرايات، والفسحة، ورسمة الكوخ،
واترك لي البلادة والوقوف آخر الفصل!
خذ الحسنات، باللّه عليك خذها،
خذ كتب الغيب.. خذ الحجّ، والعمرة، وماء زمزم، ورمضان،
خذ الزيارات، ودعاء الوالدين، وخذ حتى السبحات،
خذ الملائك، والغيم، والأعشاب،
خذ القصب، والسدرة، ويقين المؤمنين!
يا حلمي الصعب، خذ كل شيء..
واترك لي الحساب العسير!

منام

نوفمبر ١٩٨٧

رأيت أني أقف خطيباً على منبر، وأصرخ في حشدٍ هائجٍ ويشع، يحملون لافتات عريضة، وصورة رجلٍ ملتحٍ، وعلى رأسه عمامةٌ سوداء. كنت أقول: «سنواجهكم من أكبر شيخٍ حتى آخر رضيع. نحن لا نستريح، وحياتنا من عدوٌ إلى عدوٌ.. ومن فاجعةٍ إلى فاجعة، ولا نبالي. لم نتعب، وخيولنا لا تتوقف عن الصهيل، ووحوشنا لا يغمدون سيوفهم إذا استلوها. إننا نترك علاماتنا في قلوب صغارنا كالحروق، لقد أنجبناهم ليكونوا جاهزين لأيِّ موت. لا تعبثوا بأرضنا وارحلوا».

منام

إبريل ٢٠٠٨

كنت في مجلسٍ صغير، ويجواري عدد من الكهول، ثم دخل أكبرهم سناً، مقدماً رجله اليمنى جاهراً بصوته «بسم الله.. السلام عليكم»؛ كان وجهه يتهلل بالحياة، جلس في الزاوية وراح يضحك ويشتم الجالسين كلهم إلا أنا، ثم قام فجأةً وخرج.. وعند الباب أقسم بالله أنه لن يرجع! سألت من كانوا بجواري إن كانوا يعرفونه، ولا أحد كان يعرفه. أحببته وحفظت ملامحه.. كانت له نفسٌ رقيقةٌ ومدهشة، كان نحيلاً ولحيته بيضاء وخفيفة، ونبضات قلبه المجهد تقفز كما يقفز الأطفال. ثم رأيت أني في سيارتي وهو إلى يميني.. سألني: «لماذا تغير الناس؟ كيف تبدلت الأيام لهذا الحد؟». كان منهكاً وعيناه مبلولتان! لم أجب عن سؤاله، فما كان إلا أن نظر إلى الأعلى، وردد كلمةً واحدة مرتين «يا ألله، يا ألله»..

منام

ديسمبر ١٩٩٣

رأيت أمي على شكل امرأة شابة، تنظر إليّ من مكانٍ عال، لم أتبيّنه، ربما كانت في السماء. لم تتكلم لكنها رمت إليَّ بورقة. فتحتها وقرأت في داخلها: «حتى وإن جفّت وديان القرية، إلا إنها لم تنقص قطرةً واحدة من الوديان التي في نفسي، وحتى وإن هجمت الشقوق على جدران البيت الذي ولدتَ فيه، إلا أن البيت الذي في أعماق روحي ما زال على صورته الأولى، وما زال صوتي بالتهليل والوصلوات بين جنباته كل فجر. احفظ أغنياتي التي شابكتها كل عمري بخيوط الشمس والصباح من كل نافذة، وإذا سمعت صراخ الراقصين.. فلتتطاير واترك لكل العصافير، التي في جبهتك، أن تقفز في الجوّ، ارقص وارفع كلتا يديك عالياً».

منام

إبريل ٢٠٠٣

قلت لك..
ذو اللحية الخفيفة،
الذي لم يغسل وجهه من ثلاثين عاماً.

ذاك الفلاح الذي جرح القصب ذراعه..
الذي لسعه الدبور في إصبعه الوسطى!

الطالب الذي ضربه المدير عشرين مرة،
لأنه يهرب من المدرسة!

الجالس على بعد شبرين من المصارعة الحرة..
ويلكم شاشة القناة الأولى.

آخر الأخوة الصغار،
الذي لم يركض معهم، فحمّلوه غسيل الفناجين وانتظار الأذان.

النائم في المستودع،
حيث النافذة المخلوعة تساحق الشجرة،
حيث البرد والوضوء وسورة الرحمن.

الطفل الركيك.. الضائع بين طلعتين،
الطفل الذي نسي وأخذ الطلعة الأولى، لكنه لم يجد أهله هناك..
وجد فتاةً تكبره بعشرين سنة،
كان لها صوت القدر، ولم يكن لها وجه ولا يدان،
وعلّمته أن لا يصعد أول طلعة كل حياته.

ذاك الريفي الذي يصيح فوق البئر والشياه،
ليثأر من خيول الوحدة.

الصبي الذي رقصت القرية في ختانه،
والجارات جئن له بالوعود والهيل والعسل!
ذاك..

ذو الجسد النحيل والكتف المكسورة..

الزعلان على أمه من ثلاث سنين، لأنها وافقت على الكفن!

المأخوذ في أقاصي الشتاء..
الذي تربع وسط الشارع، ومرت الأبواق من حواليه ولم يتحرك.

الواقف في يسار الصورة.. وأحدهم — في الصورة نفسها — ينظر إليه باستغراب،
الواقف في يسار الصورة،

ممسكاً بشيءٍ ما، وذكرياته كلها تقفز من رأسه نحو الرصيف.

المعتمر، الذي يمشي ويمشي ويمشي فوق سطح الحرم..
باكياً من خشية اللّه.

الحاج..
الذي ابتهل للّه في عرفة؛
قال: «يا رب.. وزعني كالرياح على عبادك»!

الساكت في الركن منذ عام النصر،
وصدره مزروعٌ بالشيب والكلمات..

الرجل المحتبي على الصخرة في رأس الوادي،
الذي يشبه العناد، ولم يسمع بالأبراج ولا باللّه.

قلت لك..
إني المحروس بالعفاريت التي لا تنام،
الذي يأنف من النوم في الليل،
فيحدق في السقف حتى الصباح..

الساخط الذي مشى على حافة الطابق العلوي
وأمه تستغيث باللّه أن لا يطيح.

الشاب الذي قطع الوهم لهاته ولم يسكت،
الشاب الذي لم يصدّق الأبواب ولا النساء.

الملثّم الذي غادر البلدة آخر الليل،
ولم ينتبه له القناصة ولا الخونة..
يمناه على سرّته، ويسراه على الدرب!

العابر بين بابين،
الذي لم يُلقِ التحية على الجالسين،
لكنه أخرج المكاتيب والحمائم التي في معطفه.

القريب من الهاوية،
البعيد عن الهاوية،
الذي مدّ يده ساعة الولادة،
لكن أحداً لم يمسكها.

السرّ المنتصب أمام الباب..
وكلهم يدخلون إلا هو.

ذاك الذي يفتح يديه بنصف ابتسامة،
القابض على صورة الطفل المنبوذ،
الساكت تحت الشجرة،
المطمور برائحة الحناء والعشب،
النائم في قلب النهار،
الممتد على طول القبر،
ذو الصرخات النيّة، ذو العينين التي تشبه عيون السباع،
الممسوس بالعدم والظلمات،

الجوعان لأول كلمة.. الجوعان لآخر كلمة،
الذي لم يصدق غير الموت والرياح،
ذاك الـ.. أنا!

قلت لكِ..
قلت لكِ إني كل هذا الركام المريع،
إني ذاك الزحام الأبكم..
قلت لكِ إنك لا تعرفين هذا الفيلق الناقم،
إني غابةٌ من العاهات الحميمة،
وإني صيحة بائسة!

قلت لك..
لكنك لم تسمعي،
لم تسمعي!

منام

أكتوبر ٢٠٠٧

و.. هذا الأرق الأبدي:

عند الإشارة تكون الساعة (AM 07:30): في زمن الأرق والركام هذا، لم أنم البارحة!

عند (AM 12:01): عينان تحدقان عميقاً في البلدة، وكهلٌ تجاوز المائة، بثيابٍ ولحيةٍ بيضاء، يكتب على باب المدينة: «لا يمكن لهذه البنايات العالية، ولا تلك الشوارع المسفلتة على مدّ البصر، ولا كل هذه اليافطات والدعايات الضخمة، لا يمكنها أن تملأ الأرواح الفارغة، وأعمدة النور تلك لا تستطيع أن تخدع المشاة طويلاً.. ولا أحد بوسعه أن يكتم رائحة الخراب الذي ينخر كل شيء، وتختنق بدخانه نفوس متعبة أكثر يوماً إثر يوم.. يا ربّ لطفك؛ كأنْ ليس في هذه البقعة أغنيةٌ ونبعٌ.. ولا فتيات!»

و (AM 02:07): صديقان على الهاتف، تحدثا عن رجلين مقهورين، ووصفاهما بتعاسة، وأخيراً قالا كلاماً عابراً عن الكتب التي سيقرأها الآتون بعد مائة عام، وبتضجّر سخرا مما تبقّى من الأحلام، وقبل أن يغلقا الخط، قال أحدهما: «إننا نكدح لأجل

بلادٍ لا نملك فيها بيوتاً». سكت الآخر قليلاً، ثم أطبق سمّاعته ولم يقل حتى كلمة وداع!

وفوق أحد البيوت القديمة، بقريةٍ في الأقاصي، وفي الـ(AM 03:15) وبالرغم من شدة البرد وحلكة الليل إلا أن صبيةً صغيرةً توشك أن تكمل عامها السابع عشر، كانت ترفع رأسها باتجاه السماء، وتستقبل صفحتها الغريبة بوجهها الجميل، تريد أن تنظر إلى حظّ سنواتها المعلقة هناك بعيداً.. فرأت أن النجوم كانت حزينةً ووحيدةً وعزلاء، وكانت قليلةً للحد الذي أفزعها أن تقضي الليلة كلها وهي تفتش عن نجمةٍ تسميها النجمة الثامنة عشرة.

وفي الـ (AM 04:33) كانت السيدة التي وخط الشيب رأسها من كل مكان قد أكملت قراءة رواية «الحب في زمن الكوليرا»، ولم يكن الكتاب الأول الذي رمته بتأفف على الرفّ وهي تقول «ما هو هذا الحب الذي أمضيت عمري في قراءته!»، وبتصرّف يائس سحبت رواية «الموت يمرّ من هنا» ورجعت إلى مقعدها، وفتحت أول صفحة!

وعند الدقيقة (AM 05:50): تلمع عينان بين الأنقاض..
(AM 07:30).. يا لهذا الأرق!

منام

يناير ١٩٩٧

يا صارخ اللّه.. اهتف،
دعني أحرك هذا الجسد المثلوم،
اهتف وهات والدي وهو يزفر كالليث الجائع،
خنجره في يده اليمنى،
ويسراه تعلو في السماء..
ويعدو مثل قصيدة ثأر!
اهتف اهتف.. فأنا ما زلت صغيراً،
وقلبي حبة رمان..

منام

اكتوبر ١٩٩٨

رجل مكلومٌ وغاضب.. بيده كتاب لم يفتحه بعد، وقف صامتاً بالجبل، عاري القلب والكتفين والجبين، لائذاً بكلمة اللّه الأزلية من كلمات البشر الهشّة، متضرعاً إلى رب السموات والأرض، لا يريد أكثر من أن يلهمه اللّه الكلمات الحلوة. رمى بدمعه وحصياته، وسامح الأوغاد الذين لاحقوه بعوائهم كالجراء. رجع لأرضه، وفور عودته، ولمجرد أن مسّ جدران بيته انهال يقين اللغة على قلبه، فانزوى عن أهله وقال شيئاً يقطر المطر ووجع الكون من جانبيه..

١٣

لفافةٌ لم تقرأها ماريا..

في أول مرة آتي لمكانٍ آتيه لأول مرة.. كان هذا قبل سنين حين زرت بيروت أول مرة، يومها تمنيت، مجرد أمنية، لو أن واحدةً من بنات الجبل تقول في نفسها؛ «سأقتحم حياة رجلٍ شديد الغرابة، لا يعرف أني أعرف عنه ما لم يعرفه أحدٌ من البشر!».. تمنيت لو نجلس بجوار بعضنا على طاولتين قريبتين من بعضهما، وأختلق أي سببٍ للكلام حتى لو كان نغمة جوّالها..

— آسف إن تفاجأت بالأغنية.. أعني بنغمة جوالك، أنا أحب فيروز طبعاً، وأحب هذه الأغنية بالذات، ولما سمعتها بحثت تلقائياً عن مصدر الصوت، لم أقصد مضايقتك بالتفاتتي الفضولية هذه.

— أبداً، لا يهمك، أنا فقط لم أرد أن أجيب على الاتصال فتركته يرن بالأغنية. لم أتوقع أن أحداً سينتبه أو يسمع، لا بدّ أن أخفض صوته حتى لا يزعج أحداً!

— حتى أنا نغمة جوالي أغنية مزعجة.

— صحيح؟ أي أغنية؟

— أغنية «كيفك إنتا»

— أغنية حلوة جداً. أنتم الرجال تحبون هذه الأغنية دائماً!

— لم أفكر في أمر الرجال والنساء، الكلمات بسيطة جداً، لكنها مؤثرة جداً، بما فيها من الحنين للأيام الأولى، واللقاء القديم قبل سنين طويلة. أظن لها علاقة بالحرب الأهلية اللبنانية، وكيف افترق الكثير من الأهالي والعشاق هرباً من الحرب، بعضهم لم يعد أبداً، وبعضهم عاد، لكن كل شيء قد تغير حتى الحب.. أنتِ لبنانية ولا بدّ أنك تعرفين هذه القصة أكثر مني!

— معك حق.. حتى أنت تعرف لبنان.. وضحكت.

تخيلت أني ضحكت معها، لكني لا أعرف لماذا قامت دون تفكير، وألقت بلمحة وبعض ابتسامة، ومضت.

الحقيقة أني...

لا، لا، الحق أني لم أفعل شيئاً من هذا، كنت أتخيَّل لا غير. هي لم تحدثني ولا أنا حدثتها!

١٤

منام.. لم يُكتب

شاليه..

أغلق غسان باب الشاليه الذي أعاد إليه كل أسراره. قرّ أن يلزم البقاء فيه لوقتٍ طويل. كان الوقت مبكراً، لكنه شعر بالإعياء والحزن. شعر بفقدٍ مفاجئ لم يفهمه، فذهب إلى فراشه، شدّ اللحاف على جسده وقطرت من رأس أنفه دمعة واحدة.. ثم لحظات وباغته النوم!

عندما استيقظ اعتدل على فراشه وأخذ يتذكر المنام الذي رآه؛ لقد رأى الفتاة التي التقاها في صدفة المقهى، لكنها كانت في المنام شديدة الجمال، وتشبه صورة أمه. كانت بيضاء وشعرها طويلٌ وأسود، وقد ربطت على بعض رأسها منديلاً، وكانت تلبس جلابيةً سوداء، مطرزةً بخيوطٍ مذهبة في الجنبين والصدر.. ومع أنها كانت بعيدةً إلا أنه كان يراها بوضوح. كانت تقف خلف سورٍ شفاف، لكنه كان ضخماً وعالياً جداً. فتحت ذراعيها له، وهي تبكي، فميّز كفيها وأصابع رجليها وقد خضبتها بالحناء. رأى في منامه ذاك أنه تمدد وعيناه مغمضتان، وأن تلك

الفتاة تقف من جهة جمجمته، وتنظر إلى داخلها. لم ينزعج من اقترابها، بل أحبها وشعر بالطمأنينة، وأراد أن يقوم إليها ويسألها من أنتِ، لكنه كان كلما تحرّك نحوها يهرب شيءٌ إلى السور الشفاف ويختبئ خلفه، وهي تكاد تموت كلما خرج ذاك الشيء، فيتراجع!

عندما استيقظ لم يسحب القلم ولا دفتره الصغير، ذا اللون الأبيض الباهت، ولم يفكر أن يفتح اللابتوب ليعيد شيئاً مما قد حذفه سابقاً..

بكى فقط دون أن يفكر في السبب.. ولم يكتب ذلك المنام!

ثلاثة تنبيهات قبل إغلاق هذا الكتاب

* تنبيه حول ما يسمونه بالندم:

بسم اللّه الرحيم، وبسم عدد الحجارة التي تحفّ فوهة البئر، أو بعدد الرجال الذين استيقظوا مرةً وهم دونما بنادق ولا بيوت، فلم يبك أيّ واحد منهم، لكنهم جميعاً ذهبوا إلى حافة الجبل بصمت، وقفزوا دفعةً واحدة، فتشدخت أجسادهم على بعضها، أما قلوبهم فبقيت كالقشّ، تلفحها الرياح.. بعدد الأطفال الذين سمعوا جلبة رجلٍ غريب في غرفة أمهم، وهم محبوسون في غرفة مجاورة، بعدد التكايا التي توسدها الجنود العائدون من الحرب، لكنهم لم يجدوا أحداً في انتظارهم، بعدد البقايا الحزينة التي يأتي بها المطر من زوايا العالم، بعدد الأصابع التي لمست ذات المكان من اللوحة، بعدد شعيرات القطط والخراف، وبعدد زمّات الشفتين والخيبة، بعدد النسوة اللائي بكين أكثر مما حلمن، بعدد السكون والنوم الأخير، بعدد الميازيب الجافة، الممدودة على حوافّ البيوت.. بعدد الثنايا والحروف التي تخرج من بينها، بعدد الأشياء كلها.. أما بعد:

فهذا التنبيه عن الكلمات التي لمست الروح من أول نبرة، فمسّتنا ونحن مثل يتامى لا يحفظون أسماءهم كاملة، أخاطبك

فقط أنت أيها الفلاح، وأقول: لا تنسها، فإنها لن تفعل ذلك من جديد، ودونها لن نكون قادرين على الركض في الغيمة، مثل أحصنةٍ شهباء..

لا تنسها!

* تنبيه ليلي:

اغرس قلبك في جذع شجرة، لكن لا تثق بظلّها.. هذه نصيحة الليل.

* تنبيه أزلي أخير:

لا تجلس في ظلّ شجرة لا تعرف الطريق إليها مرتين!